الاتجاه الصوفي عند المدرسة الأشعرية

ابن خفيف الشيرازي ت ٣٧١ نموذجا

إعداد الدكتور

إبراهيم سليمان سويلم

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

جامعة الأزهر – مصر

الاتجاه الصوفي عند المدرسة الأشعرية
ابن خفيف الشيرازي ت٣٧١ نموذجًا

إبراهيم سليمان سويلم
قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، بورسعيد، جامعة الأزهر – مصر .
البريد الإلكتروني:Ibrahemswelam2592.el@azhar.edu.eg

الملخص:

يتناول هذا البحث الاتجاه الصوفي عند المدرسة الأشعرية حيث اشتهر أعلام المدرسة الأشعرية باتجاههم الصوفي بجانب علم الكلام وكان هذا صوفي واضح واستمر هذا الاتجاه إلى عصرنا الحاضر ليظهر في أوضح صورة في شخصية الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف، وقد اخترت شخصية من أعلام الأشاعرة لتكون نموذجًا لتداخل التصوف السني بعلم الكلام السني على مذهب الأشاعرة وهو أبوعبدالله محمد بن خفيف الشيرازي الذي كان من أعلام الأشاعرة وكان صوفيًا كبيرًا له منهج واضح في التصوف يقوم على قواعد ثابتة من القرآن والسنة ، **والنتيجة من هذا البحث:** أن المدرسة الأشعرية قد امتزج فيها التصوف السني بعلم الكلام السني وكان ابن خفيف الشيرازي أحد أهم النماذج الدالة على ذلك حيث جاء تصوفه موافقًا لقواعد الإسلام وأصوله في القرآن والسنة وتلك طبيعة التصوف عند أهل السنة جميعًا.

الكلمات المفتاحية: الاتجاه ، الصوفي ، المدرسة الأشعرية ، ابن خفيف ، أهل السنة ، علم الكلام .

The Sufi trend according to the Ash'arite school Ibn Khafif Al-Shirazi d. 371 examples

Ibrahim Suleiman Suwailem

Department of Doctrine and Philosophy, Division of Fundamentals of Religion, College of Islamic and Arab Studies for Girls, Port Said, Al-Azhar University, Egypt

Abstract:

This research deals with the Sufi trend of the Ash'ari school, where the figures of the Ash'ari school were famous for their Sufi direction, along with theology ,I have chosen a figure from the Ash'ari notables to be a model for the overlapping of Sunni Sufism with the science of Sunni theology on the Ash'ari doctrine, and he is Abu Abdullah Muhammad bin Khafif Al-Shirazi, who was one of the prominent Ash'aris and was a great Sufi with a clear approach to Sufism based on firm rules from the Qur'an and Sunnah ,The result of this research is that the Ash'ari school mixed Sunni mysticism with the science of Sunni theology, and Ibn Khafif al-Shirazi was one of the most important examples of this, as his mysticism came in agreement with the rules and principles of Islam in the Qur'an and Sunnah, and that is the nature of mysticism among all Sunnis.

Keywords: direction - Sufi - Ash'ari school - Ibn Khafif - Ahl al-Sunnah - Theology

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،،،

فقد تميزت مدرسة أهل السنة الكلامية بميزات كثيرة أهلتها لأن تكون أكبر المدارس الإسلامية ذيوعًا وانتشارًا في أوساط المسلمين.

ولما كانت المدرسة الأشعرية هي القسم الأكبر من أهل السنة فإنها قد تحققت بتلك الميزات على أكمل الوجوه.

ومن أهم تلك الميزات التي تميزت بها مدرسة أهل السنة عمومًا والأشاعرة منهم خصوصًا تشابك علم الكلام السني بالتصوف الإسلامي الصحيح القائم على دعائم راسخة من القرآن والسنة، فلذلك ظهر الاتجاه الصوفي واضحًا عند المدرسة الأشعرية.

ومن هنا جاء هذا الموضوع الذي اخترت أن يكون عنوانه «الاتجاه الصوفي عند المدرسة الأشعرية ــ ابن خفيف الشيرازي نموذجًا».

والواقع أن ظهور الاتجاه الصوفي عند المدرسة الأشعرية لم يكن مختصًا بمرحلة معينة ولا بطور مخصوص من مراحل المدرسة وأطوارها، وإنما ظهر هذا الاتجاه الصوفي منذ تأسيس المدرسة على يد مؤسسها ورائدها الأول الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله، ثم سرى في كل طبقاتها سريانًا لا يخفى على أي ناظر ــ ولو بنظرة عابرة ــ على أعلام الأشاعرة في أي كتب من كتب التراجم.

فوجدنا الأشعري ــ رحمه الله ــ سيدًا من سادات التصوف كما أنه سيد في أنواع أخرى من العلوم أهمها علم الكلام، كذلك وجدنا تلاميذ الأشعري الأولين الذين يعتبرون هم الطبقة الأولى في المدرسة الأشعرية قد اشتهروا بالزهد

والتصوف، ثم وجدنا هذا الاتجاه عامًا في المدرسة في جميع مراحلها حتى عصرنا الحاضر حيث تجلى الاتجاه الصوفي عند أهل السنة من الأشاعرة في أبهى صورة وأحسن نماذجه في شخصية الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب ــ حفظه الله ذخرًا للإسلام والمسلمين ــ الذي يعد أشهر المنافحين المعاصرين عن مذهب أهل السنة في جميع ميادينه سيما الميدان الكلامي والعقدي ثم هو في ذات الوقت شيخ لطريقة من أكبر طرق التصوف في مصر والعالم الإسلامي٠

وقد عالج المبحث الأول من هذه الدراسة تلك الفكرة وذكرت أشهر نماذج المتكلمين الذين اشتهروا بالزهد والتصوف في طبقات مختلفة قديمًا وحديثًا٠

وقد تناولت نموذجًا واحدًا ــ تناسبًا مع طبيعة الدراسة وحجمها ــ ليكون خير دليل على هذا التشابك والتداخل الواضح بين علم الكلام السني والتصوف السني كذلك وهو الشيخ الكبير أبوعبدالله محمد بن خفيف الشيرازي ت٣٧١هـ الذي أثبتت هذه الدراسة كونه أشعريًا صحيحًا حيث أخذ علم الكلام عن الإمام الأشعري مباشرة بل صار من أعيان تلامذته، ثم التقى بأعيان المذهب في طبقتيه الأولى والثانية٠

ففي الطبقة الأولى أثبتت الدراسة أنه التقى وتناقش وتجاور مع أعلام هذه الطبقة مثل أبي الحسن الباهلي وبندار بن الحسين وهما مثله من خواص تلاميذ الإمام الأشعري وملازميه٠

ثم امتد عمر ابن خفيف ليلتقي بأشهر مشاهير الطبقة الثانية من تلاميذ تلاميذ الإمام الأشعري وهو القاضي الباقلاني رحمه الله، فثبت بذلك انتساب ابن خفيف للمدرسة الأشعرية فاخترته نموذجًا للتعبير عن هذا الاتجاه الصوفي عند المدرسة الأشعرية وقد كان هذا موضوع المبحث الثاني٠

وقد كان تصوف ابن خفيف سنيًا خالصًا حيث كان لمنهجه الصوف معالم سنية وشرعية واضحة كلها مؤيدة بالقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

وقد تناولت هذه المعالم بتفصيل مناسب لطبيعة هذا البحث وقد جاء المبحث الثالث لبيان تلك المعالم المنهجية للتصوف عند ابن خفيف وتوضيحها.

تقسيم الدراسة:

وقد قمت بتقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث:

فالمبحث الأول جاء بعنوان: نماذج ممن اشتهروا بالتصوف من متكلمي الأشاعرة .

وقد ذكرت في هذا المبحث أشهر الأعلام من طبقات مختلفة الذين اشتهروا باتجاه الزهد والتصوف ونصت كتب التراجم على كونهم صوفية أو زهادًا وقد بدأت بالإمام الأشعري كأشهر النماذج مرورًا بنماذج مشهورة من طبقات عديدة حتى ختمت النماذج بخير ختام وهو الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف الأستاذ الدكتور أحمد الطيب حفظه الله.

والمبحث الثاني جاء بعنوان: التعريف بابن خفيف الشيرازي وبيان نسبته إلى المذهب الأشعري.

وفي هذا المبحث عرفت بابن خفيف تعريفاً موجزًا لكنه جاء وافيًا من حيث اسمه ومولده ونسبه ومشايخه وتلامذته ومؤلفاته وكان هذا في النقطة الرئيسة الأولى من هذا المبحث.

ثم جاءت النقطة الثانية منه لأبين فيها انتساب ابن خفيف الشيرازي إلى المذهب الأشعري حيث التقى بمؤسس المذهب وأخذ علم الكلام على يديه، ثم التقى بالطبقتين الأولى والثانية ــ وكان يدرس كتب الإمام الأشعري في بلده شيراز.

والمبحث الثالث جاء بعنوان: معالم المنهج الصوفي وتطبيقاته عند ابن خفيف٠

وفي هذا المبحث تناولت أهم المعالم المنهجية للتصوف عند ابن خفيف مثل:

- مثل قيام التصوف على دعائم عقدية سنية راسخة٠
- ومثل ارتباط التصوف بالشريعة وعلومها ارتباطًا وثيقًا٠
- ومثل: التصوف إيجابي وليس سلبيًا٠
- ومثل: بناء التصوف على المجاهدة والعزائم لا على التساهل والرخص٠
- ومثل تقديم الحلول العملية الميسورة للقضايا الصوفية المهمة٠

وقد حرصت في كل معلم من هذه المعالم على بيان أن ابن خفيف امتثلها نظريًا وعمليًا ولم يخرج في الجانبين عن حدود الشرع قيد أنملة٠

ثم ذيلت البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة٠

ثم جعلت نهايتها ثبتًا لأهم مصادر الدراسة ومراجعها٠

ثم فهرسًا لأهم الموضوعات٠

والله تعالى أسأل أن يكتب لنا الإخلاص والتوفيق والقبول٠

المبحث الأول

نماذج ممن اشتهروا بالتصوف من متكلمي الأشاعرة

الإمام الأشعري: أجمعت المصادر التي ترجمت للإمام الأشعري ــ رحمه الله ــ أنه كان صاحب قدم راسخة في علم التصوف كما هو صاحب قدم راسخة في علوم أخرى، يقول ابن السبكي عن الإمام الأشعري:(قالوا:وكان الشيخ ــ ﷺ ــ سيدًا في التصوف واعتبار القلوب كما هو سيد في علم الكلام وأصناف العلوم)[١].

وروى ابن عساكر قال:(سمعت أبا الحسن السَّرَوِيّ الفاضل في الكلام يقول: كان الشيخ أبوالحسن ــ يعني الأشعري ــ رحمه الله ــ قريبًا من عشرين سنة يصلي صلاة الصبح بوضوء العتمة، وكان يحكي عن اجتهاده شيئًا لا إلى حد)[٢].

وقد شهد ملازمو الإمام الأشعري ومرافقوه المقربون بمقدار ورعه واجتهاده فيقول أحمد بن علي الفارسي الفقيه: (سمعت أبي يقول: خدمت الإمام أبا الحسن الأشعري بالبصرة سنين وعاشرته ببغداد إلى أن توفي رحمه الله، فلم أجد أورع منه ولا أغض طرفًا، ولم أر شيخًا أكثر حياءً في أمور الدنيا ولا أنشط منه في أمور الآخرة)[٣].

ويروون كذلك عن زهده في النفقة وتقلله من الدنيا ما يذكره خادمه بندار بن الحسين قائلاً: (كان أبوالحسن يأكل من ضيعه وقفها جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري على عقبه،وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهمًا)[٤].

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ٣٥١ .
(٢) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري صـ٢٩٤ .
(٣) تبيين كذب المفتري صـ٢٩٥ .
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ١١ صـ٣٤٦ .

هكذا: كان المؤسس ــ رحمه الله ــ من المشهورين بالزهد والتصوف بجانب شهرته في العلوم الأخرى.

ومن الطبقة الأولى: وهم تلاميذ الإمام الأشعري المباشرون الآخذون عنه:

بندار بن الحسين: وهذا كان أقرب التلاميذ إلى الإمام الأشعري حيث كان خادمه زمناً طويلاً، فأما ملازمته لأبي الحسن الأشعري فينص عليها الخطيب البغدادي بقوله: (كان بندار بن الحسين خادم أبي الحسن علي بن إسماعيل بالبصرة)[١].

وقد عده ابن عساكر من الطبقة الأولى من أصحاب الأشعري الذين أخذوا عنه[٢] وذكر أن من هذه الطبقة: (أبوالحسين بندار بن الحسين الشيرازي الصوفي خادم أبي الحسن رحمهما الله)[٣].

ويقول عنه أبوعبدالرحمن السلمي: (بندار بن الحسين بن محمد ابن المهلب، كنيته أبوالحسين من أهل شيراز، سكن أرّجان وكان عالمًا بالأصول له اللسان المشهور في علم الحقائق، وكان أبوبكر الشبلي يكرمه ويعظم قدره)[٤].

وقال القشيري: (بندار بن الحسين الشيرازي كان عالمًا بالأصول، كبيرًا في الحال، صحب الشبلي)[٥].

ومن هذه الطبقة الأولى: أبوسهل الصعلوكي النيسابوري رحمه الله: وقد نص أبوبكر بن فورك على تتلمذ أبي سهل الصعلوكي على يد الشيخ الأشعري فقال: (إن أبا سهل رحل إلى العراق وقت الشيخ أبي الحسن ودرس عليه)[٦].

(١) تاريخ بغداد جـ١١ صـ٣٤٦ .
(٢) تبيين كذب المفترى صـ٣٤٣ .
(٣) نفس المصدر صـ٣٤٩ .
(٤) السلمي: طبقات الصوفية صـ٣٤٩ .
(٥) الرسالة القشيرية جـ١ صـ١٤١ .
(٦) نفس المصدر صـ٣٥٨ .

ونص ابن السبكي أيضًا على ذلك فقال إن (من الآخذين عن الشيخ الأشعري الأستاذ أبوسهل الصعلوكي)[١].

وهو مشهور يعلم التصوف كذلك حيث قال ابن عساكر عنه: (أبوسهل الصعلوكي الفقيه الأديب اللغوي النحوي الشاعر المتكلم المفسر المفتي الصوفي حبر زمانه وبقية أقرانه ﷺ)[٢].

وقد عده القشيري من مشاهر الصوفية وذكر له كلامًا كثيرًا في التصوف فقال: (قال الأستاذ أبوسهل الصعلوكي رحمه الله: التصوف الإعراض عن الاعتراض)[٣].

وكذلك قال الذهبي عن الصعلوكي: (كان أبوسهل الصعلوكي مقدمًا في علم الصوفية، صحب الشبلي والمرتعش، وله كلام حسن في التصوف) [٤].

ومن هذه الطبقة الأولى أيضًا: أبوزيد المروزي رحمه الله: (ذكر أبوبكر ابن فورك أن المروزي ممن استفاد من أبي الحسن الأشعري من أهل خراسان)[٥]. خراسان)[٥].

ونص ابن عساكر على أنه كان مشهورًا بالزهد بل كان من أزهد أصحابه فقال: (محمد بن أحمد بن عبدالله الفقيه الزاهد أبوزيد المروزي كان أحد أئمة المسلمين، ومن أحفظ الناس لمذهب الشافعي، وأحسنهم نظرًا وأزهدهم في الدنيا)[٦].

وقال ابن السبكي عن المروزي: (كان ممن أجمع الناس على زهده وورعه

---

(١) طبقات الشافعية جـ٣ صـ٣٦٨ .
(٢) تبيين كذب المفترى صـ٣٥٨ .
(٣) الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٤٤٤ .
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٨ صـ٣٠٩ .
(٥) تبيين كذب المفترى صـ٣٦٦ .
(٦) نفس المصدر صـ٣٦٦ .

وكثرة علمه وجلالته في العلم والدين، فكان أحد أئمة المسلمين ومن أحفظ الناس لمذهب الشافعي وأحسنهم نظرًا وأزهدهم في الدنيا)[١].

وقال عنه الخطيب البغدادي: (كان أحد أئمة المسلمين حافظًا لمذهب الشافعي حسن النظر مشهورًا بالزهد والورع)[٢].

ومن الطبقة الأولى أيضًا: أبوالحسين بن سمعون البغدادي المُذَكِّر، حيث عده ابن السبكي من الآخذين عن الإمام الأشعري حيث (جالس الشيخ وعاصره وأخذ عنه وتمذهب بمذهبه وأخذ عنه شفاهة)[٣].

ويقول ابن عساكر عن ابن سمعون: (كنيته أبوالحسين من مشايخ بغداد له لسان عال في هذه العلوم ــ أي علوم التصوف وهو لسان الوقت والمرجوع إليه في آداب الظاهر، وهو إمام المتكلمين)[٤].

وهناك غير هؤلاء الأعلام كثيرون في هذه الطبقة اشتغلوا بعلم الكلام على مذهب الإمام الأشعري، واشتهروا بالتصوف والزهد وعلم الحقيقة[٥].

ومن الطبقة الثانية ممن اشتهروا بالزهد والتصوف إلى جانب تمذهبهم بمذهب الإمام الأشعري (أبوعلي الدقاق النيسابوري شيخ أبي القاسم القشيري)[٦].

وعده ابن السبكي كذلك في الطبقة الثانية من اتباع الأشعري فقال:

(ومن الثانية ... والأستاذ أبوعلي الدقاق)[٧].

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ٧٢ .
(٢) تاريخ بغداد جـ١ صـ٣٣٠ .
(٣) طبقات الشافعية جـ٣ صـ٣٦٨ .
(٤) تبيين كذب المفترى صـ٣٨٩ .
(٥) راجع ابن عساكر: تبيين كذب المفترى من صـ٣٨٩ إلى صـ٤٠٠ .
(٦) نفس المصدر صـ٤٢٩ .
(٧) طبقات الشافعية جـ٣ صـ٣٦٩ .

ومن هذه الطبقة الثانية: (أبوسعد بن أبي عثمان النيسابوري الخركوشي الزاهد، هكذا ذكره ابن عساكر في الطبقة الثانية من الأشاعرة من الذين صحبوا أصحاب الأشعري)[١].

وقال عنه: (الواعظ الزاهد تفقه في حداثة السن وتزهد وجالس الزهاد المجردين، إلى أن جعله الله خلفًا لجماعة ممن تقدمه من العُبّاد المجتهدين والزهاد القانعين)[٢].

وقال عنه ابن السلمي بعد أن عده من الطبقة الثانية من الأشاعرة: (كان فقيهًا زاهدًا من أئمة الدين وأعلام المؤمنين ترجى الرحمة بذكره)[٣].

ومن هذه الطبقة الثانية أيضًا: أبوالحسن من ما شاذه الأصبهاني[٤].

وقد عده ابن السبكي من أعلام الطبقة الثانية من الأشاعرة(٥) وقال عنه ابن عساكر: (كان من شيوخ الفقهاء وأحد أعلام الصوفية جمع بين علم الظاهر والباطن)[٦].

وقال عنه أبونعيم: (وخُتم التحقيق بطريقة المتصوفة بأبي الحسن على من ما شاذه لما أولاه الله من فنون العلم والسخاء والفتوة، وسلوكه مسلك الأوائل في البذل والعطاء والإنفاق والتبري والتعري من التملك والإمساك، وكان عارفًا بالله عالمًا وفقيهًا عاملاً عالمًا بالأصول وبارعًا في الفروع....)[٧].

---

(١) تبيين كذب المفترى صـ٤٤٢ .
(٢) نفس المصدر صـ٤٤٢ .
(٣) طبقات الشافعية جـ٥ صـ٢٢٢ .
(٤) تبيين كذب المفترى صـ٤٥٢ .
(٥) طبقات الشافعية جـ٣ صـ٣٦٩ .
(٦) تبيين كذب المفترى صـ٤٥٢ .
(٧) أبونعيم: حلية الأولياء جـ١٠ صـ٤٠٦ .

ومن مشاهير هذه الطبقة ممن جمع بين الكلام وعلم الزهد الأستاذ أبوإسحق الإسفراييني، وقد عده ابن السبكي من الطبقة الثانية من الأشاعرة[١].

وقال عنه ابن عساكر: (إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الفقيه الأصولي المتكلم المقدم في هذه العلوم أبوإسحق الإسفراييني الزاهد)[٢].

ونقل ابن عساكر عن عبدالغافر الفارسي قوله عن الإسفراييني: (الأستاذ الإمام أبوإسحق الإسفراييني، أحد من بلغ حد الاجتهاد من العلماء لتبحره في العلوم واستجماعه شرائط الإمامة من العربية والفقه والكلام والأصول ومعرفة الكتاب والسنة، وكان من المجتهدين في العبادة المبالغين في الورع والتحرج)[٣].

وقال النووي عن الإسفراييني: (وكان الأستاذ أحد الثلاثة الذين اجتمعوا في عصر واحد على نصر مذهب الحديث والسنة في المسائل الكلامية القائمين بنصرة مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وهم: الأستاذ أبوإسحق الإسفراييني، والقاضي أبوبكر الباقلاني والإمام ابن فورك، وكان الصاحب بن عباد يثني عليهم الثناء الحسن مع أنه معتزلي مخالف لهم لكنه أنصفهم)[٤].

والنووي يقصد بثناء الصاحب بن عباد المعتزلي عليهم ما أورده ابن عساكر بقوله: (كان الصاحب بن عباد إذا انتهى إلى ذكر الباقلاني وابن فورك والإسفراييني، وكانوا متعاصرين من أصحاب الأشعري، قال لأصحابه: ابن الباقلاني بحر مغرق، وابن فورك صلّ مُطرق، والإسفراييني نار تحرق)[٥].

ومن مشاهير هذه الطبقة الثانية أيضًا أبونعيم الحافظ الأصبهاني، وقد عده ابن عساكر من الطبقة الثانية ممن صحب أصحاب الأشعري[٦].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ٣٦٩ .
(٢) تبيين كذب المفترى صـ٤٥٩ .
(٣) تبيين كذب المفترى صـ٤٦٠ .
(٤) النووي: تهذيب الأسماء واللغات جـ٢ صـ١٧٠ .
(٥) تبيين كذب المفترى صـ٤٦١ .
(٦) نفس المصدر صـ٤٦٤ .

وقال عنه ابن السبكي: (الإمام الجليل الحافظ أبونعيم الأصبهاني الصوفي الجامع بين الفقه والتصوف والنهاية في الحفظ والضبط)[١].

ويكفيه في مجال التصوف تصنيفه لكتاب "حلية الأولياء" (الذي ذكر ابن السبكي أنه لم يُصنف مثل كتاب حلية الأولياء)[٢] وقال عنه (ومن مصنفاته حلية الأولياء، وهي من أحسن الكتب)[٣].

ومن الطبقة الثالثة: ممن لقي أصحاب أصحاب الأشعري وأخذ العلم عنهم:

من مشاهير هذه الطبقة: أبوبكر الدمشقي الزاهد المعروف بابن الجرمي ــ رحمه الله ــ[٤].

وقد عده السبكي من أعلام الطبقة الثالثة فقال إن من هذه الطبقة: (أبوبكر بن الجرمي الزاهد) [٥].

وكذلك نص ابن عساكر على أنه كان على مذهب الإمام الأشعري فقال: (وكان يذهب إلى مذهب أبي الحسن الأشعري رحمه الله)[٦].

ومن الطبقة الرابعة من الآخذين بمذهب الإمام الأشعري: الأستاذ أبوالقاسم القشيري، قال عنه ابن عساكر: (وكان ثقة وكان حسن الموعظة مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي)[٧].

وقال عبدالغافر الفارسي عن القشيري: (الإمام مطلقاً الفقيه المتكلم الأصولي المفسر الاديب النحوي الكاتب الشاعر، لسان عصره، وسيد وقته، وسر الله بين

(١) طبقات الشافعية جـ٤ صـ١٨ .
(٢) طبقات الشافعية جـ٤ صـ٢١ .
(٣) نفسه صـ٢٢ .
(٤) تبيين كذب المفترى صـ٤٨٢ .
(٥) طبقات الشافعية جـ٣ صـ٣٧٠ .
(٦) تبيين كذب المفترى صـ٤٨٢ .
(٧) نفس المصدر صـ٥١٠ .

خلقه، شيخ المشايخ، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة، ومقصود سالكي الطريقة، وبندار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة)[١].

وكذلك عده ابن السبكي من مشاهير الطبقة الرابعة من طبقات الأشاعرة فقال: (ومن الرابعة: ... والأستاذ أبوالقاسم القشيري)[٢].

ويقول أبوالحسن الباخرزي عن القشيري: (... ماهر في التكلم على مذهب الأشعري)[٣].

ثم يقول عن شهرته في التصوف: (... ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حبوته، وأروا قربته من الحق وحظوته تضاءلوا بين يديه، وتلاشوا بالإضافة إليه، وطواهم بساطه في حواشيه، وانقسموا بين النظر إليه والتفكر فيه)[٤].

ويكفينا في الدلالة على شهرته وسبقه في علم التصوف كتابه الشهير "الرسالة القشيرية".

ومن الطبقة الخامسة ممن جمع بين علم الكلام على مذهب الإمام الأشعري والتصوف وجدنا أشهر مشاهير هذه الطبقة حجة الإسلام أباحامد الغزالي رحمه الله، ولا يشك أحد أن الإمام الغزالي منسوب إلى المذهب الأشعري، فهو أنجب تلاميذ إمام الحرمين،ولذلك عده ابن السبكي من أعيان الطبقة الخامسة من الأشاعرة[٥].

ثم إن له القدم الراسخة في علم التصوف علمًا وعملاً حيث: (سلك طريق الزهد والتأله، وطرح ما نال من الدرجة، والاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة، فخرج

(١) نفسه صـ٥١١ .
(٢) طبقات الشافعية جـ٣ صـ٣٧١ .
(٣) أبوالحسن الباخرزي: دمية القصر جـ٢ صـ٩٩٤ .
(٤) دمية القصر جـ٢ صـ٩٩٤ .
(٥) طبقات الأشاعرة جـ٣ صـ٣٧١ .

عما كان فيه وقصد بيت الله، وأخذ في التصانيف التي لم يسبق لمثلها مثل "إحياء علوم الدين")[1].

وفي العصر الحاضر: هكذا يمتد خط التواصل والتلاقي بين علم الكلام وعلم التصوف عند أعلام المذهب الأشعري ليصل بنا إلى عصرنا الحاضر لنرى أشهر نماذج هذا التواصل والتلاقي ممثلة في الأزهر الشريف سيما في مشايخه وأئمته الكبار ومن أشهر تلك النماذج:

الشيخ الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور عبدالحليم محمود رحمه الله: الذي كان من كبار أساتذة العقيدة والفلسفة في عصرنا الحاضر، وهو كذلك متصوف مشهور ومؤلف مذكور، ومؤلفاته في العلمين تعتبر مرجعًا أساسيًا لكل باحث وقارئ فيهما.

الشيخ الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر ــ حفظه الله ــ وهو أستاذ للعقيدة السنية، بل هو أكبر منافح عن مذهب أهل السنة عمومًا وعن مذهب الأشاعرة خصوصًا، وهو كذلك شيخ طريقة من أكبر طرق التصوف الإسلامي في عصرنا الحاضر.

والواقع أن توجه الأزهر الشريف لإرساء هذا الخط الجامع بين علمي الكلام والتصوف لهو توجه واضح ومستقر، وليس أدل على ذلك وجود قسم العقيدة والفلسفة بكليات جامعة الأزهر الشريف يمتزج فيه علم التوحيد على مذهب أهل السنة بعلم التصوف الإسلامي، ليؤكد على تلك الحقيقة التاريخية وهي امتزاج علم الكلام السني بعلم التصوف الإسلامي في المدرسة السنية عمومًا والأشعرية منها خصوصًا منذ بدايتها واستمر ممتدًا ملازمًا لها حتى الآن.

(١) تبيين كذب المفترى صـ٥٤٤.

المبحث الثاني
التعريف بابن خفيف الشيرازي
وبيان نسبته إلى المدرسة الأشعرية

أولاً: التعريف بابن خفيف الشيرازي:

اسمه: هو محمد بن خفيف[١] بن عبدالله الضبي الشيرازي، وزاد الذهبي في اسمه الفارسي[٢]، وزاد حاجي خليفة في اسمه الشافعي[٣].

وهذا الاسم السابق محل اتفاق بين المترجمين لابن خفيف، ولكنهم قد اختلفوا في اسم جده بألفاظ قريبة، فهو عند جنيد الشيرازي: اسكفشاذ[٤] بهمزة وسين مهملة وكاف وفاء وشين معجمة وآخره ذال معجمة.

وهو عند الذهبي: اسفكشار[٥]، وعند ابن عساكر والسبكي اسفكشاد[٦]، وعند

(١) راجع في ترجمة ابن خفيف: الهجويري: كشف المحجوب جـ١ صـ٧٠ ، ترجمة د/سعاد عبدالهادي ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م، وراجع أيضًا: الذهبي ، تاريخ الإسلام جـ٨ صـ٣٦٥ ، بتحقيق د/ بشار عواد ، ط١ سنة ٢٠٠٣م ، دار الغرب الإسلامي، وراجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـ٥٣ صـ٤٠٥ ،بتحقيق: محب الدين العمري ، ط١ ــ ١٩٩٥م ، دار الفكر، بيروت.

(٢) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١٢ صـ٣٤٥ ، ط١ سنة ٢٠٠٦م ، دار الحديث ــ القاهرة.

(٣) راجع: حاجي خليفة: سلم الوصول إلى طبقات الفحول جـ٣ صـ١٣٦ ، بتحقيق: محمد عبدالقادر الأرناؤوط ــ مكتبة أرسكيا ــ تركيا ٢٠١٠م.

(٤) جنيد الشيراز: شد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار صـ٣٨ صححه: محمد قزويني ، طبعة طهرار سنة ١٣٢٨هـ.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١٢ صـ٣٤٥ .

(٦) راجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـ٥٣ صـ٤٠٥، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ١٤٩ ط٢سنة١٤١٣هـ ، دار هجر للطباعة.

حاجة خليفة اسفكساد[١]، وعند ابن الملقن: أسيد كشاذ[٢].

وهذا الخلاف بين المترجمين لابن خفيف يؤكد حقيقة هامة وهي أن ابن خفيف لم يكن من المغمورين الذين لا يؤبه بهم، وإنما كان من الأعلام المعدودين والعلماء المذكورين الذين حرص المترجمون على بيان اسمه واسم أبيه واسم جده بتدقيق وتمحيص.

مولده:

اتفقت المصادر التي ترجمت لابن خفيف أن مولده كان في مدينة شيراز، إلا أن هذه المصادر لم تنص على تاريخ ولادته، غير ما جاء في طبقات الأولياء أنه ولد سنة ٢٦٧هـ[٣].

ويمكن تأكيد هذا التاريخ بما رواه الذهبي وابن عساكر أنه عاش مائة وأربع سنين، وقد توفي سنة ٣٧١هـ[٤] فيكون تاريخ ولادته كما جاء في طبقات الأولياء سنة ٢٦٧هـ.

كنيته: اشتهر ابن خفيف بكنيتين إحداهما في صغره وهي "أبوالحسين" والأخرى في كبره والتي ظل مشتهرًا بها طول حياته وهي "أبوعبدالله".

فأما أبوالحسين فيقول عنه ابن خفيف: (كانت كنيتي في زمن الطفولة أبا الحسين وبها عُرفت)[٥].

وأما أبوعبدالله فهي الكنية التي اشتهر بها ابن خفيف وشاعت في كتب التراجم حيث كان المترجمون يصدرون التعريف بابن خفيف بها وهي"أبوعبدالله"[٦].

مشايخ ابن خفيف وأساتذته:

(١) راجع: حاجي خليفة: سلم الوصول جـ٣ صـ١٣٦ .
(٢) ابن الملقن: العقد المذهب في تاريخ حملة المذهب صـ٢٢٧ ،ط١ سنة ١٤١٧هـ ، دار الكتب العلميةة
(٣) راجع: ابن الملقن: طبقات الأولياء صـ٢٩٠ بتحقيق: نور الدين شربية ـــ ط٢ ـــ ١٩٩٤م ـــ مكتبة الخانجي بالقاهرة.
(٤) راجع الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١٢ صـ٣٤٥، وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـ٥٢ صـ٤٠٥ .
(٥) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٨٨ .
(٦) نفس المصدر صـ٨٨ .

لقد اجتهد ابن خفيف في تحصيل أنواع من العلوم والفنون المشهورة في عصره؛ فلذلك كان له مجموعة من المشايخ في علوم مختلفة، كالتصوف والحديث والفقه وعلم الكلام، ويمكن ذكر أهم مشايخ ابن خفيف فيما يلي:

مشايخه في التصوف:

١ - **أبوالعباس أحمد بن يحيى**(١): وهو أول شيخ صحبه ابن خفيف وتعلم على يديه وتنبأ له هذا الشيخ بمستقبل باهر في طريق التصوف.

يقول ابن خفيف عن شيخه هذا: (كان أحمد بن يحيى أول شيخ صحبته)(٢) ويروي ابن الملقن عن الشيخ الكبير أنه قال: (أول من لقيت من المشايخ أحمد ابن يحيى وعلى يديه تبت، وأول ما أمرني به كتابة الحديث ثم أخذ بعد ذلك في رياضتي)(٣).

ويقول ابن خفيف أيضًا: (حينما أردت في زمن الطفولة أن أشرع في أحوال الآخرة كنت أتردد على أحمد بن يحيى فقال لي ذات يوم اتبعني فتبعته...)(٤).

وكان بن خفيف يُجِلَّ هذا الشيخ إجلالاً كبيرًا ويطيع أمره طاعة كاملة، وكان شيخه يعجب بتقدمه في طريق التصوف.

٢ - **أبومحمد رويم**(٥): وهو من المشايخ الكبار الذين أجمع المؤرخون على أن ابن خفيف صحبه وبالتالي تعلم منه، يقول القشيري عن ابن خفيف: (صحب رويمًا والجريري وابن عطاء وغيرهم وهؤلاء أعلمهم بالظاهر)(٦).

---

(١) هو أحمد بن يحيى وكنيته أبوالعباس: لقى الأفاضل من الصوفية وكتب عن= =الجنيد وأبي محمد رويم ولقى سهل بن عبدالله وهو أول شيخ صحبه ابن خفيف. راجع: الجنيد الشيرازي: شد الإزار صـ١٣٧ .

(٢) سيرة الشيخ الكبير صـ١٨٨ .

(٣) ابن الملقن: طبقات الأولياء صـ٢٩١ .

(٤) سيرة الشيخ الكبير صـ١٩١ .

(٥) هو رويم بن أحمد بن يزيد وهو من أهل بغداد من جلة مشايخهم وكان فقيهًا على مذهب داوود الأصبهاني الأصبهاني وكان مقرئًا فقرأ على إدريس بن عبدالكريم الحداد مات سنة ٣٠٣هـ. انظر: السلمي: طبقات الصوفية صـ١٤٧، وأبونعيم: حلية الأولياء جـ١٠ صـ٢٩٦ .

(٦) القشيري: الرسالة القشيرية جـ١ صـ٨٢ .

ويذكر ابن خفيف أنه هو الذي بحث عن رويم وقصده فيقول: (لما دخلت بغداد قصدت رويمًا وقد تولى القضاء، فلما دخلت عليه رحب بي وأدناني وقال: من أين أتيت؟ قلت من فارس)[١].

وفي ذلك تنفيذ عملي من ابن خفيف لضرورة البحث عن شيخ لأخذ علم التصوف على يديه، ويبدوا أن ابن خفيف أقام مع رويم مدة وتعلم منه أشياء كثيرة ظهرت في الروايات التي رواها عنه ابن خفيف، وظهرت كذلك في تقدير ابن خفيف لهذا الشيخ.

يقول ابن خفيف: (ما وقع بصري على أحد تحدث في التوحيد مثل رويم)[٢].

ويقول ابن خفيف: (سألت رويمًا عن التصوف فقال: يا بني: التصوف إفناء الناسونية وإظهار اللاهوتية، فقلت: زدني رحمك الله، فقال: لا رحمني إن كان في ذلك مزيد)[٣].

وينقل عنه ابن خفيف قوله عن حقيقة التصوف: (كل الخلائق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق)[٤].

٣ – أبوالعباس بن عطاء[٥]: وهذا أيضًا من مشايخ الصوفية الذي أجمعت كتب التراجم[٦] على أن ابن خفيف صحبه وتعلم منه، ولم يرو ابن خفيف تفاصيل كثيرة عن صحبته لأبي العباس بن عطاء سوى رواية واحدة تبدأ باعتراض ابن خفيف ومناقشته لأبي العباس بن عطاء في مسألتين من المسائل، فبدأ التعارف بينهما بالمناقشة والاعتراض ثم انتهى بالصحبة والدعاء.

(١) انظر هامش صـ١٥٢ من سيرة الشيخ الكبير للديلمي.
(٢) سيرة الشيخ الكبير صـ١٥٣ .
(٣) نفس المصدر ص٢٧٨ .
(٤) نفس المصدر صـ٢٧٩ .
(٥) هو أبوالعباس بن عطاء واسمه أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم، له لسان في فهم القرآن يختص به صحب إبراهيم المارستاني والجنيد بن محمد ومن فوقهما من المشايخ وكان أبوسعيد الخراز يعظم شأنه، توفي سنة ٣٠٩هـ. راجع: السلمي: طبقات الصوفية صـ٢٠٧، وابن الملقن: طبقات الأولياء صـ٥٩ .
(٦) راجع: القشيري:الرسالة القشيرية جـ١صـ٨٢، والهجويري:كشف المحجوب صـ٣٧٠ .

يقول ابن خفيف: (لما وصلت إلى مجلسه ــ يقصد أبا العباس ابن عطاء ــ كان أبومحمد الجريري جالسًا معه وقد اعترضت عليه مرتين مرة في موضوع الفراسة، والثانية في رواية حديث أورده أبوالعباس لا على وجهة الصحيح)[١].

ودارت بينهما مناقشات حول هاتين المسألتين وانتهت بأن أقبل من خفيف على الشيخ أبي العباس الذي أكرمه وقربه ودعا له.

يقول ابن خفيف: (... وحينما انتهت المناقشة أخذني أبوالعباس إلى منزله وأحضر لي طعامًا فأكلت ودعا لي قائلاً: طوبي لأولائك الذين غنمت صحبتهم وتنعمت بمجالستهم)[٢].

٤ – **أبومحمد الجُرَيْري**[٣]: وهو من مشايخ ابن خفيف الذين ينتسب إليهم والي صحبتهم، وهو من متقدمي القوم ممن صحب الجنيد وكان عالمًا بعلوم الصوفية كبير الحال عالي المقام فيهم[٤].

يقول عنه ابن خفيف: (كنت أَعُد أبا محمد من جملة الأولياء، وكل من رأى سيرته وسلوكه لا يشك في ولايته)[٥] ويقول ابن خفيف في موضع آخر (لم أر أحدًا أحدًا يتحدث في المعرفة مثل أبي محمد)[٦].

٥ – **أبوالحسن المزين**[١]: وهو من المشايخ الكبار الذين صحبهم ابن خفيف في مكة ويبدو أن هذه الصحبة امتدت زمنًا؛ لأن ابن خفيف يروى عنه روايات كثيرة رواها أبوالحسن عن مشايخه وأقرانه.

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ١٥٨ .
(٢) نفس المصدر صـ١٥٩ .
(٣) هو أحمد بن محمد الحسين الجُريري كان من كبار أصحاب الجنيد وصحب أيضًا سهلاً بن عبدالله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم، أقعِد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حالة وصحة علمه توفي سنة ٣١١هـ. راجع: السلمي: طبقات الصوفية صـ٢٠٣، وابن الملقن: طبقات الأولياء صـ٧١ .
(٤) القشيري: الرسالة القشيرية جـ١ صـ١٠٢ .
(٥) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ١٦٠ .
(٦) نفس المصدر صـ١٦٠ .

فيروي عنه ابن خفيف أنه كان عظيم الصبر عند الإساءة إليه[٢].

ويروي ابن خفيف عن أبي الحسن المزين كثيرًا من الكرامات[٣].

٦ – **أبويعقوب الأقطع**[٤]: كان هذا الشيخ من مشايخ ابن خفيف أيضًا، وقد صحبه ابن خفيف فترة من الزمن وروى تفاصيل عن صحبته وعلومه وإكرامه له حتى موته[٥].

٧ – **أبوعلى الروذباري**[٦]: صحب ابن خفيف أبا علي الروذباري وروى عنه بعض الأحوال[٧]، وروى عنه حكايات تدل على أنه كان مشهورًا بالحلم ولم يُر غاضبًا قط[٨].

كان هؤلاء السبعة السابقين هم المشايخ الذين أخذ عنهم ابن خفيف مباشرة في علم التصوف حيث تعلم منهم وصحبهم زمناً وانتفع بعلومهم وصحبتهم.

وهذا لا يمنع أن ابن خفيف التقى بمشايخ آخرين كثر ولكن لم يصحبهم فترة يعتد بها بل كان لقاءً أو لقاءات مرة أو بعض مرة[٩].

---

(١) هو أبوالحسن علي بن محمد المزين من أهل بغداد صحب الجنيد وسهلاً ابن عبدالله ومن في طبقتهما من البغداديين، وأقام بمكة مجاورًا ومات بها، وكان من أروع المشايخ وأحسنهم حالاً، توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.
راجع: السلمي:طبقات الصوفية ص٢٨٩، وابن الملقن طبقات الأولياء صـ١٤٠ .
(٢) سيرة الشيخ الكبير صـ٢٣ .
(٣) نفس المصدر صـ١٢٤ .
(٤) هو أحد صوفية بغداد من طبقة الجنيد وأضرابه وقد زوج ابنته للحلاج لما رأى من حسن طريقته واجتهاده، ثم نسبه بعد ذلك إلى السحر والاحتيال. راجع: تاريخ بغداد جـ٨ صـ٦٨٨، والرسالة القشيرية جـ١ صـ٣٠٦ .
(٥) راجع سيرة الشيخ الكبير صـ١٢١ .
(٦) هو من صوفية بغداد، سكن مصر وصار شيخها ومات بها، صحب أباالقاسم الجنيد وأباالحسين النوري وأبا حمزة وحسنًا الموجي ومن في طبقتهم من مشايخ بغداد، وصحب بالشام ابن الجلاء وكان عالمًا بالطريقة حافظًا للحديث، توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وأسند الحديث. انظر: السلمي: طبقات الصوفية صـ٢٦٩،
وابن الملقن: طبقات الأولياء صـ٥٠ .
(٧) سيرة الشيخ الكبير صـ١٢٨ .
(٨) نفس المصدر صـ١٣٠ .
(٩) ومن أشهر هؤلاء أبومغيث الحسين بن منصور الحلاج، المقتول ببغداد سنة ٣٠٩هـ، راجع في ترجمة الحلاج: السلمي: طبقات الصوفية صـ١٣٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢صـ١٤٠، والذهبي: تاريخ الإسلام جـ٧صـ١٦ .

مشايخه في الفقه: كان من العلوم التي حرص ابن خفيف على تعلمها وإتقانها علم الفقه؛ وذلك لأنه من المعلوم لدى محققي الصوفية أن تصحيح الشريعة وإقامة أركانها على الإتباع من أهم المهمات التي يُلزم المشايخ بها مريديهم، وقد اتبع ابن خفيف هذه السُّنة الصوفية فراح يطلب علم الفقه.

وقد كان من توفيق الله تعالى لابن خفيف أنه أخذ هذا العلم على أكبر فقهاء عصره وأعظمهم شأنًا في الفقه على مذهب الإمام الشافعي وهو أبوالعباس ابن سُريج[1].

ويتحدث ابن خفيف عن أنه كان يحضر مجلس ابن سريج لتعلم الفقه عما جرى بينهم من مناقشات في مسألة المحبة، فيقول: (سألنا يومًا القاضي أبوالعباس بن سريج بشيراز وكنا نحضر مجلسه لدرس الفقه فقال لنا: محبة الله فرض أو غير فرض؟ قلنا: فرض، قال وما الدلالة على فرضها؟ فما فينا من أتى بشيء فقبل، فرجعنا إليه وسألناه على فرض محبة الله فقال قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال فتوعدهم الله عزوجل على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله، والوعيد لا يقع إلا على فرض لازم وحتم واجب)[2].

(١) هو أبوالعباس أحمد بن عمر بن سريح الفقيه الشافعي كان من عظماء الشافعية وأئمة المسلمين ولي القضاء بشيراز وكان يفضل على جميع أصحاب الشافعي وكان حاضر الجواب، له مناظرات ومساجلات مع محمد بن داوود الظاهري، توفي ببغداد سنة ٣٠٦هـ. راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ صـ٦٦، وطبقات الشافعية جـ٣ صـ٢١ .

(٢) ابن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية جـ١ صـ١٥٦ بتحقيق: محيى الدين علي نجيب ط١ ـــ ١٩٩٢م ـــ دار البشائر ـــ بيروت.

مشايخه في علم الكلام: لقد أجمعت المصادر على أن ابن خفيف قد رحل من شيراز إلى البصرة للقاء الإمام الأشعري والتتلمذ على يديه[١]، وسيأتي بيان ذلك في النقطة التالية:

تلامذته:

١ – **الشيخ أبوأحمد الكبير**[٢]: وقد كان من ملازمي الشيخ خادمًا له فترة طويلة، ويذكر ابن عساكر شيئًا عن صحبة أبي أحمد الكبير لابن خفيف فيقول: (قال أبوأحمد الكبير: صحبت أبا عبدالله بن خفيف ستين سنة، عشرون لا أفارقه ليلي ولا نهاري وأربعون سنة أصلي معه الصلوات الخمس فما رأيته غضب إلا ثلاث مرات.....)[٣].

٢ – **الشيخ أبوأحمد الصغير**[٤]: وهو من ملازمي ابن خفيف، الذي كان له حظوة ومحبة أكثر من غيره، وذلك لكمال طاعته لابن خفيف يدل على ذلك ما رواه الديلمي قائلاً: (روى أنه كان عنده مريدان أحدهما أحمد الكبير والآخر أحمد الصغير وكان الشيخ يحسن معاملة أحمد الصغير، فغار الأصحاب من ذلك....)[٥].

٣ – **الشيخ عبدالرحيم**[٦]: وهو من تلامذة ابن خفيف ومريديه ويبدو أنه لازمه فترة طويلة؛ لأنه روى عنه أحوالاً كثيرة في أوقات متعددة مثل أحوال الشيخ

(١) طبقات الشافعية جـ٣ صـ١٢، وتبيين كذب المفترى صـ٧٧ .

(٢) هو الفضل بن محمد خادم الشيخ الكبير وصاحبه وكان مشهورًا بالزهد الكامل حيث ظل خمسة وعشرين سنة عليه جلباب صوف غليظة بلا سراويل وكان كثير العزلة حسن السيرة، توفي سنة ٣٣٧هـ. راجع: الجنيد الشيرازي: شد الإزار صـ٤٦، والديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٢٦٨ .

(٣) راجع: ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق جـ٥٢ صـ٤١٨ .

(٤) هو الحسن بن علي الشيرازي صحب ابن خفيف ولازمه خمسة وثلاثين سنة قال ابن خفيف: كيف لا أحب أبا أحمد الصغير وكان يغطيني وأهلي بالثياب ثلاثين سنة. توفي سنة ٣٨٥هـ. راجع: شد الإزار صـ٤٧، وسيرة الشيخ الكبير صـ٢٦٨ .

(٥) العطار: تذكرة الأولياء جـ٢ صـ٢١٨ .

(٦) هو أبوعمرو عبدالرحيم بن موسى الاصطخري، وهو من تلاميذ الشيخ وكان سيدًا في التصوف، سافر الحجاز والعراق والشام، ولقى رويمًا وسهل بن عبدالله التستري. راجع في ترجمته: شد الإزار صـ٥١ .

في كثرة التصدق والإنفاق، ومثل إحسانه إلى جيرانه وإخوانه، ومثل أمره لعبدالرحيم أن يتعلم الحديث بجانب التصوف[١].

٤ – **ابن باكويه**[٢]: وقد ذكر الذهبي أنه ارتحل لطلب علوم التصوف وسمع من محمد بن خفيف الشيرازي وغيره وحدث عنه أبوالقاسم القشيري وعبدالواحد ولد القشيري وغيرهما له تصانيف كثيرة[٣].

٥ – **الديلمي**[٤]: وهو كاتب سيرة الشيخ الكبير ابن خفيف، وقد استمرت صحبته لابن خفيف حوالي تسع عشرة سنة حيث التقى به وتتلمذ عليه حوالي سنة ٣٥٣هـ[٥].

٦ – **أبونصر السراج الطوسي**[٦]: وقد لازم الطوسي ابن خفيف فترة وروى عنه بعض الأحوال وبعض الكرامات[٧].

هؤلاء أشهر تلاميذ ابن خفيف، وإن كان الجنيد الشيرازي يذكر بعضًا أخرين مثل: أبوعلي الحسن بن محمد الأكّار، وأبوعبدالله محمد ابن عبدالرحمن المقاريضي، وربما يذكر السلمي في تلاميذ ابن خفيف[٨].

---

(١) سيرة الشيخ الكبير صـ١٠٥ .

(٢) هو الإمام الصالح المحدث شيخ الصوفية أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن عبيدالله بن باكويه الشيرازي، ولد سنة نيف وأربعين وثلاثمائة، وارتحل إلى ابن خفيف وسمع منه وله تصانيف وجموع. راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٧ صـ٥٤٤، والزركلي: الأعلام جـ٦ صـ٢٢٧ .

(٣) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٧ صـ٥٤٤ .

(٤) هو أبوالحسن علي بن محمد تلميذ ابن خفيف وكاتب سيرته وجامع أخباره، والمعلومات عنه شحيحة جدًا، وقد نبه على ذلك العلامة الدكتور حسن الشافعي في مقدمة تحقيق كتاب عطف الألف المألوف للديلمي. راجع مقدمة تحقيق كتاب عطف الألف المألوف بتحقيق د/ حسن الشافعي والمستشرق جوزيف تورمنت بل صـ١٠ ـــ ط١ ـــ ٢٠٠٧م ـــ دار الكتاب المصري ـــ القاهرة.

(٥) راجع: شد الإزار صـ٣٨ .

(٦) هو أبونصر السراج عبدالله بن علي الطوسي الزاهد شيخ الصوفية، وصاحب كتاب اللمع في التصوف كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلم الشريعة، وقال السخاوي: كان على طريقة السنة، توفي في رجب عام ٣٧٨هـ. راجع ابن العماد: شذرات الذهب جـ٤ صـ٤١٣، والزركلي: الأعلام جـ٤ صـ١٠٤ .

(٧) راجع: شد الإزار صـ٤٩، وسيرة الشيخ الكبير صـ١٠٩ .

(٨) راجع: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٣ صـ٤٢، وابن الملقن: طبقات الأولياء صـ٣٠٣ .

مؤلفاته: لقد كان ابن خفيف صاحب قلم سيال أجمعت المصادر على أنه كان عزيز التأليف كثير التصنيف، وعدوا له مؤلفات كثيرة معظمها في التصوف، وكذلك في الفقه والحديث والعقيدة.

يقول أبوالعباس النسوي: (صنف شيخنا ابن خفيف من الكتب ما لم يصنفه أحد، وانتفع به جماعة صاروا أئمة يقتدى بهم وعمَّر حتى نفع الله به البلدان)[١].

ويقول عنه فريد الدين العطار: (كان يصنف في كل أربعين يومًا تصنيفًا من غوامض الحقائق، وله كثير من التصانيف في علم الظاهر جميعها مقبولة مشهورة)[٢].

ونعتمد هنا في ذكر مؤلفات ابن خفيف على ما ذكره كاتب سيرته أبوالحسن الديلمي حيث قال: (كان أول مصنفات الشيخ كتاب "شرف الفقر" وآخرها كتاب "جامع الإرشاد" وبينهما صنف:

كتاب: الاستذكار.
كتاب: الفصول في الأصول.
كتاب: المنقطعين.
كتاب: الجوع وترك الشهوات.
كتاب: لبس المرقعات.
كتاب: الرد على ابن سالم.
كتاب: الرد على ابن زينا.
كتاب: الاعتقاد.
كتاب: الاقتصاد.
كتاب: اللوامع.
كتاب: فضل التصوف.
كتاب: المحبة.
كتاب: الجمع والتفرقة.

وكتبه المطولة تبلغ عدد خمس عشرة كتابًا، وكذلك كتبه الصغيرة، أما المسائل المتفرقة التي سئل فيها فأجاب فلا حصر لها ولا عدد)[٣].

ولا زالت معظم هذه المؤلفات مخطوطات لم يتم الكشف عنها لتخرج إلى عالم المطبوعات.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٨ صـ٣٦٥ .
(٢) فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء جـ١ صـ٢١٣ .
(٣) راجع: الديلمي سيرة الشيخ الكبير صـ٢٥٧ ـــ ٢٥٨ .

وفاته: توفي ابن خفيف في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة، وهذا محل إجماع من مترجمي ابن خفيف، حتى قال ابن عساكر: (وذكروا كلهم أنه مات ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة)[1].

وقال ابن السبكي: (وازدحم الخلق على جنازته وكان أمرًا عظيمًا)[2].

ثانيًا: بيان نسبة ابن خفيف للمذهب الأشعري:

لقد أضحى انتساب ابن خفيف للمذهب الأشعري واضحًا غاية الوضوح ومجمعًا عليه من ترجموا لابن خفيف، وتستطيع بيان تلك النسبة فيما يلي:

١ – رحلته إلى الإمام الأشعري والتقاؤه به وتتلمذه على يديه:

كان من مميزات ابن خفيف الرحلة في طلب العلم لأعلام المشايخ في كل فن من فنون عصره، فكما كانت له رحلات لطلب الحديث على أشهر مشايخ عصره، وكذلك تعلم الفقه في بلده على أشهر فقهاء الشافعية، كذلك ارتحل إلى الإمام الأشعري والتقاه وأخذ على يديه علم الكلام على مذهب أهل السنة.

ويروى ابن خفيف عن رحلته إلى الإمام الأشعري وأول لقاء جمعهما في البصرة موطن الإمام الأشعري فيقول: (دخلت البصرة في أيام شبابي لأرى أبا الحسن الأشعري ــ رحمة الله عليه ــ لما بلغني خبره، فرأيت شيخًا بهي المنظر، فقلت له: أين منزل أبي الحسن الأشعري؟ فقال وما الذي تريد منه؟ فقلت: أحب أن ألقاه، فقال: ابتكر غدًا إلى هذا الموضع، قال فابتكرت فلما رأيته تبعته، فدخل دار بعض وجوه البلد، فلما أبصروه أكرموا محله، وكان هناك جمع من العلماء ومجلس نظر فأقعدوه في الصدر، فلما شرع في الكلام دخل هذا الشيخ فأخذ يرد عليه ويناظره حتى أفحمه، فقضيت العجب من علمه وفصاحته، فقلت لبعض من كان

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـ٥٢ صـ٤٢٠ .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ١٥٥ .

عندي: من هذا الشيخ؟ فقال: أبوالحسن الأشعري، فلما قاموا اتبعته، فالتفت إليّ، وقال: يا فتى كيف رأيت الأشعري؟ فخدمته وقلت يا سيدي: كما هو في محله، ولكن مسألة: قال: قل يا بني: فقلت مثلك في فضلك وعلو منزلتك كيف لم تَسْأَل ويَسْأَل غيرك، فقال: أنا لا أتكلم مع هؤلاء ابتداءً، ولكن إذا خاضوا في ذكر ما لا يجوز في دين الله رددنا عليهم بحكم ما فرض الله علينا من الرد على مخالفي الحق، وعلى هذه الجملة سيرة السلف، أصحاب الحديث المتكلمين منهم في الرد على المخالفين وأهل السنة والزيغ)[1].

ويحكي الشيخ الكبير حكاية أخرى عن لقاء ثان بالإمام الأشعري وتجاذبهما أطراف الحديث في مسألة علمية أعجب الأشعري بكلام ابن خفيف فيها، ووصف كلامه بأنه في غاية الجودة.

يقول ابن خفيف: (كنت وعمر بن شَلَّوَيَهْ راكبين سفينة في البصرة وكنا نتذاكر، فرأينا أبا الحسن الأشعري قد مر بنا، ثم جاء في اليوم التالي، وقال: مررت عليكما وكنتما تتذاكران وفهمت ألفاظكما، ولكني لم أدرك لها معنى، وأريد الآن أن تكررا عليّ هذه الألفاظ، قال ابن خفيف: فيم كنا نتحدث؟ قال: في سؤال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وفي سؤال موسى: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأجاب ابن خفيف: سؤال إبراهيم سؤال من هو في مقام الشوق والوجد فلا شك أنه سؤاله كان تعريضًا وسؤال موسى كان تصريحًا، ألا ترى أن إبراهيم سأل بطريق الإشارة ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، أي: يا إلهي ليس لدي شك في البعث والإحياء، وأنا مقر بسلطانك ولكني أريد أن أعرف كيفية الإحياء، ولما كان سؤال إبراهيم بطريق الإشارة فقد أجاب الحق تعالى على سؤاله برفق، وقال له: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي أن هذه

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٢٨٨ ـــ ٢٨٩ .

علامة على كيفية إحياء الموتى حتى تعلم أنني قادر على كل شيء، وآخر الآية ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إشارة إلى هذه القدرة، وحينما استمع أبوالحسن إلى هذا الكلام اعترف بفضل ابن خفيف، وقال هذا كلام في غاية الجودة، ثم قال ابن خفيف: أريد أن أستمع إلى كلامك أيضًا، فقال أبوالحسن: غدًا.

قال ابن خفيف وجاء اليوم التالي، وقال أبوالحسن كلامًا طويلاً ورأيته في غاية الإحكام)[١].

وقد تواترت في كتب التراجم حكاية اللقاء بين ابن خفيف والأشعري وقد روى الإمام ضياء الدين الرازي أبوالإمام فخرالدين الرازي هذا اللقاء وصاغه في شكل مقطوعة نثرية غاية في البلاغة[٢].

والذي يعنينا من هذه الرواية هو التنبيه على أمور معينة:

- **منها:** أن الإمام الأشعري قد اشتهر في عصره بعلم أصول الدين حتى فاق فيه جميع معاصريه، أو على حد تعبير ابن خفيف أن الأشعري: (فاق الفضلاء من أبناء زمانه، واشتاق العلماء إلى استماع بيانه)[٣].

- **ومنها:** إعجاب ابن خفيف الشديد بالإمام الأشعري حيث قال: (رأيت شيخًا بهي منظره شهي مخبره، تعلوه حمرة، متحيز إلى زمره، فلمحته ببصري، وأمعنت فيه نظري، فرحت به فرحة الحبيب بالحبيب، والعليل بالطبيب، لما وجدت منه ريح المحبوب كما وجد من قميص يوسف يعقوب على ما قالهﷺ الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)[٤].

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ١٧٢ .
(٢) السبكي: طبقات الشافعية جـ٣ صـ١٥٩: ١٦٣ .
(٣) طبقات الشافعية صـ١٥٩ .
(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب: أحاديث الأنبياء باب: الأرواح جنود مجندة جـ٤ صـ١٣٣ برقم ٣٣٣٦، وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ كتاب: البر والصلة والآداب، باب: الأرواح جنود مجندة صـ٢٠٣١، برقم ٢٦٣٨ .

ويعلن ابن خفيف إعجابه الشديد بالإمام الأشعري أيضًا حين يقول عنه: (الباز الأشهب والمبارز الأشنب، والبحر الطامي، والطود السامي، والغيث الهامي والليث الحامي، ناصر الحق، وناصح الخلق، قامع البدعة، ولسان الحكمة، وإمام الأمة وقوام الملة)[١].

– **ومنها** ملازمة ابن خفيف للإمام الأشعري فترة ليرتوي من معينه كما قال: (فتعلقت بأهدابه، لخصائص آدابه، ونافست في مصافاته لنفائس صفاته، ولبثت معه برهة استفيد في كل يوم نزهة، وأدرأ عن نفسي للمعتزلة شبهة)[٢].

وبعد هذه اللقاءات وهذه التلمذة من ابن خفيف على الإمام الأشعري أصبح ابن خفيف منسوبًا للأشعري في علم الكلام، بل أصبح من أعيان تلامذته ومن مشاهير الآخذين عنه مباشرة ومن الطبقة الأولى من الأشاعرة.

يقول ابن عساكر: (باب ذكر جماعة من أعيان أصحاب الأشعري، وقد قسمتهم خمس طبقات، وجدتها على تصحيح قوله متفقات، فالطبقة الأولى: هم أصحابه الذين أخذوا عنه، ومن أدركه ممن قالوا بقوله، وتعلم منه) [٣] ثم عَدَّ ابن عساكر جماعة وقال:(ومنهم أبوعبدالله بن خفيف الشيرازي الصوفي رحمه الله)[٤].

وذكر السبكي أن من الآخذين عن الإمام الأشعري مباشرة: (الأستاذ أبوعبدالله بن خفيف) [٥] ثم قال في موضع آخر: (رحل ابن خفيف إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري وأخذ عنه، وهو من أعيان تلامذته)[٦].

٢ – لقاءاته بأقرانه من الطبقة الأولى من تلاميذ الأشعري:

(١) طبقات الشافية صـ١٦٠ .
(٢) طبقات الشافعية صـ١٦١ .
(٣) ابن عساكر: تبيين كذب المفترى صـ١٧٧ .
(٤) تبيين كذب المفترى صـ١٩٠ .
(٥) طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ٣٦٨ .
(٦) نفس المصدر جـ٣ صـ١٥٠ .

أصبح ابن خفيف الآن من تلاميذ الأشعري المباشرين، وبالتالي فهو من الطبقة الأولى من الأشاعرة، ولم يقتصر صلة ابن خفيف بالمذهب الأشعري على تتلمذه على يد مؤسس المذهب ــ رحمه الله ــ وإنما امتدت تلك الصلات ليتصل بأقرانه من الطبقة الأولى لقاءً ومناقشات.

فقد ثبت أن له لقاءات ومناقشات مع أبي الحسن الباهلي، وبندار بن الحسين في بعض المسائل ومعلوم أن هذين العَلمين هما من خواص تلاميذ الأشعري، وقد قرر ذلك ابن عساكر والسبكي وغيرهما.

قال ابن عساكر: (وممن تخرج به ــ أي الأشعري ــ ممن اختلف إليه واستفاد منه: المعروف بأبي الحسن الباهلي، وكان إماميًا في الأول رئيسًا مقدمًا، فانتقل عن مذهبهم بمناظرة جرت له مع الشيخ أبي الحسن الأشعري ﷺ ألزمه فيها الحجة حتى بان له الخطأ فيما كان عليه من مذاهب الإمامية، فتركها واختلف إليه ونشر علمه بالبصرة واستفاد منه الخلق الكثيرون)[1].

فهو ــ إذن ــ من خواص تلاميذ الأشعري كما نبه على ذلك السبكي ــ أيضًا ــ حين قال عن تلاميذ الأشعري: (وأخصهم بالشيخ أربعة، ... ثم ذكر: وأبوالحسن الباهلي: العبد الصالح شيخ الأستاذ أبي إسحاق، والأستاذ أبي بكر بن فورك، وشيخ القاضي أبي بكر أيضًا)[2].

ويتحدث ابن عساكر عن الباهلي ومنزلته فيقول: (.... أخذ عن الأشعري علم النظر وبرع وتقدم وكان من أذكياء العالم مع الدين والتعبد)[3].

وكان الباهلي يجل الشيخ الأشعري كثيرًا حتى كان يرى نفسه بالنسبة للإمام الأشعري كقطرة في بحر، يقول الأستاذ أبوإسحق الإسفراييني: (كنت في جنب

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفترى صـ١٧٨ .
(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ٣٦٨ بتصرف يسير .
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٨ صـ٣٤٤ .

الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر، وسمعت الشيخ أبا الحسن الباهلي قال: كنت في جنب الأشعري كقطرة في جنب البحر)[١].

وقد ثبت أن ابن خفيف لقى أبا الحسن الباهلي وتناقش معه ووقع بينهما عتاب، ولا تمدنا المصادر بتفاصيل عن هذه المناقشة ولا بأسباب ذلك العتاب، وقد ذكر ذلك الباهلي نفسه، فيروي صاحب سيرة الشيخ الكبير يقول: (وسمعت من أبي الحسن الباهلي قال: ذات يوم جرى بيني وبين أبي عبدالله بن خفيف عتاب، فهتف بي هاتف في النوم: يا أباالحسن: أتعاتب رجلاً من أهل الدين واليقين فقمت من النوم....)[٢].

وأما عن الشخصية الثانية من خواص الإمام الأشعري فهو: بندار ابن الحسين، وهذا أقرب تلاميذ الإمام الأشعري إليه لأنه خادمه، وقد عده السبكي في أربعة هم خواص تلاميذ الشيخ[٣].

وقال ابن عساكر: (ومنهم ــ أي تلاميذ الأشعري ــ أبوالحسين بندار بن الحسين الشيرازي الصوفي خادم أبي الحسن ــ رحمهما الله ــ، كان عالمًا بالأصول، له اللسان المشهور في علم الحقيقة، كان الشبلي يكرمه ويقدمه) [٤].

وقد أثبتت المصادر أيضًا لقاء ابن خفيف ببندار بن الحسين خادم الأشعري وجرت بينهما مناقشات.

يقول ابن عساكر عن بندار بن الحسين: (وبينه وبين محمد بن خفيف مفاوضات في مسائل، رد على محمد بن خفيف في مسألة الإغانة وغيرها حين رد محمد بن خفيف على أقاويل المشايخ، فصوب بندار أقاويل المشايخ ورد عليه ما رده عليهم)[٥].

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ٣٦٨ .
(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٢٤٠ .
(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ٣٦٨ .
(٤) ابن عساكر: تبيين كذب المفترى صـ١٧٨ .
(٥) نفس المصدر صـ١٧٩ .

ورغم قلة التفاصيل عن تلك المناقشات إلا أنه من الواضح التقاء ابن خفيف بأعلام الطبقة الأولى من الأشاعرة.

٣ – التقاؤه بمشاهير الطبقة الثانية من الأشاعرة:

لما مَنّ الله تعالى على ابن خفيف بامتداد العمر وطول الأجل أتيح له أن يلتقي بالطبقة الثانية من المدرسة الأشعرية، وهم تلاميذ تلاميذ الإمام الأشعري، وقد التقى بعين أعيان المذهب الأشعري في عصره وهو القاضي الباقلاني.

ويروى صاحب "أزهار الرياض" في ذلك رواية طويلة، والذي يعنينا منها أن القاضي الباقلاني كان قد ذهب إلى شيراز لينافح عن مذهب أهل السنة في حضرة ملك البلاد "فناخسرو" الذي كان قد أعد مجلسًا للمناظرة، وحين ذهب الباقلاني إلى شيراز وجد ابن خفيف في استقباله مع جماعة من أهل السنة والصوفية.

يقول شهاب الدين التلمساني: (قال القاضي أبوبكر بن الطيب: فخرجت إلى شيراز فلما دخلت المدينة استقبلني ابن الخفيف في جماعة من الصوفية وأهل السنة، فلما جلسنا في موضع كان ابن خفيف يدارس فيه أصحابه كتاب "اللمع" للشيخ أبي الحسن الأشعري، قال له القاضي أبوبكر: تماد في التدريس كما كنت، فقال له ابن خفيف: أصلحك الله إنما أنا بمنزلة المتيمم عند عدم الماء، فإذا وجد الماء فلا حاجة إلى التيمم، فقال له القاضي أبوبكر: جزاك الله خيرًا، وما أنت بمتيمم بل لك وافر من هذا العلم، وأنت على الحق والله ينصرك)[1].

وبذلك يكون ابن خفيف أشعريًا بلا شك لأنه تعلم من مؤسس المذهب مباشرة، ثم التقى وتحاور بأعلام المذهب في طبقتيه الأولى والثانية.

ثم هو يُدَرِّس كتب الأشعري في بلاد شيراز، وبذلك يصح أنه لسان الأشاعرة في بلاده.

(١) شهاب الدين التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض جـ٣ صـ٨٠ بتحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري ط١ سنة ١٩٣٩م ، طبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة.

والمطلع على كلام ابن خفيف في كتبه العقدية سيلاحظ مدى التطابق التام بين كلامه وكلام أهل السنة سيما الأشاعرة منهم٠

المبحث الثالث
معالم المنهج الصوفي وتطبيقاته عند ابن خفيف

أولًا: قيام التصوف على دعائم عقدية سُنية راسخة:

لقد كان من خصائص منهج ابن خفيف في التصوف ــ مثله في ذلك مثل جموع الصوفية من أهل السنة ــ أنه جعل من أهم ما يبدأ به الصوفي طريقه إلى الله بعد طلب الشيخ هو تصحيح العقيدة ومعرفة أصول الدين.

وقد رأينا ابن خفيف يرسخ هذه القواعد العقدية لدى المريدين ويجعلها من أوائل مهماتهم وواجباتهم، ويمكن عرض هذه الخصيصة المنهجية للتصوف عند ابن خفيف فيما يلي:

١ - **معرفة التوحيد هو أول ما ينبغي على المريد بعد دخوله الطريق على يد شيخ معتبر:** وفي ذلك يقول ابن خفيف: (فأول الرجوع المعرفة بتوحيد الله والتصديق لرسوله، وهو تحقيق إثبات وحدانية الله بكمال أسمائه وصفاته بنفي الأضداد والأنداد والأشباه وأنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] وبذلك أخبر الله عزوجل فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال ابن عباس: أي: إلا ليعرفون)[1].

فمن أوائل واجبات المريد معرفة الله تعالى وتوحيده، ويستدل على ذلك بالقرآن الكريم ثم يعضد استدلاله بالقرآن بدليل السنة أيضًا فيقول: (وبصحة ظاهر القرآن وردت السُّنة، قال ابن عباس: [لما بعث رسول الله ــ ﷺ ــ معاذًا ــ رضي الله عنه ــ إلى

(١) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٢٨٤ ـــ ٢٨٥ .

اليمن قال له: إن أول ما تدعوهم إلى عبادة الله فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات ....][١] وذكر الحديث بطوله، فعلى المريد أن يعتقد ذلك تحقيقًا ويقينًا)[٢].

٢ – يوجب على المريد أن يعرف أصول الدين الواردة في حديث جبريل عليه السلام يقول ابن خفيف: (ثم على المريد أن يعرف أسماء أصول الدين وما اتفق عليه رسول الله ــ ﷺ ــوجبريل ــ عليه السلام ــ، من ذلك أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره، ثم سأله عن الإسلام فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت، فقال فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم، فقال: نعم، وهكذا أجاب في الإيمان فقال: إذا فعلتُ ذلك فأنا مؤمن فقال نعم، ثم سأله عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٣])[٤].

ثم يعلق ابن خفيف على هذا الحديث الشــريف قائلاً: (فكانت السؤالات مفهومة والجوابات معلومة، فجعل ذلك كله فعل العبد الذي هو مطالب بها ومجازى عليها، ومعاقب على تركها، ثم قال: هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم)[٥].

ويزيد ابن خفيف الأمر وضوحًا حين يستشهد بأحاديث شريفة أخرى تبين الإيمان وحقيقته مثل قوله ﷺ: [الإيمان بضع وسبعون بابًا][٦] ومثل قوله ﷺ [بني

(١) هذا الحديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ في كتاب الزكاة باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة جـ٢ صـ١١٩ برقم ١٤٥٨، وكذلك أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس، كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام جـ١ صـ٥١ رقم ١٩ .

(٢) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٢٨٥ ـــ ٢٨٦ .

(٣) هذا الحديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة جـ١ صـ١٩ رقم ٥٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب الإيمان ما هو وبيان خصاله صـ٣٩ رقم ٩ .

(٤) ابن خفيف: الاقتصاد ٢٩٢ .

(٥) الاقتصاد: صـ٢٩٣ .

(٦) حديث صحيح رواه أبوداود في سننه كتاب الإيمان باب ما ورد في رد الإرجاء جـ٢ صـ٦٣٠ رقم ٤٦٧٦ .

الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت](١).

٣ - **يوجب ابن خفيف على المريد أن يعرف أن الإيمان منه ما هو موهبة ومنه ما هو كسب،** يقول ابن خفيف: (ثم على المريد أن يعرف الإيمان وما يلزمه من صحة الاعتقاد خوفاً من الوقوع في الاختلاف والبدع، فيعتقد أن الإيمان في التسمية ينقسم إلى حالين: أحدهما: موهبة، والثاني: اكتساب.

فأما الموهبة فقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال عزوجل: ﴿ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ [إبراهيم: ١] وإنما أخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان)(٢).

ويستدل ابن خفيف على هذا النوع من الإيمان وهو الموهبة من الله تعالى بالسنة المشرفة فيقول: (وقال رسول الله ﷺ: [من أراد أن ينظر إلى عبد نوّر الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى حارثة](٣))(٤).

ثم يقول ابن خفيف: (وبالأنوار يقع على القلوب الانفتاح والانشراح، وذلك كله داخل في قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾)(٥).

هذا هو القسم الأول من قسمي الإيمان وهو الوهبي من الله تعالى.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس جـ١ صـ١١ رقم٨، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس جـ١ صـ٤٥ رقم ١٦ .

(٢) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٢٨٨ .

(٣) حديث حارثة روي من وجوه عدة فيها مقال منها مثلاً: ما أخرجه عبد بن حميد في المسند عن الحارث بن مالك جـ١ صـ١٦٥ رقم ٤٤٥ ورواه البزار في مسنده عن أنس ﷺ جـ١٣ صـ٣٣٣ رقم ٦٩٤٨ .

(٤) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٢٨٨ .

(٥) الاقتصاد صـ٢٨٨ .

وأما القسم الثاني وهو الاكتساب فيقول عنه ابن خفيف: (والقسم الثاني: وهو المفروض على عباده بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] فطالبهم بالإيمان، وكان ما خاطبهم به معروفًا عندهم أنه التصديق، فنبه النبي ــ ﷺ ــ في هذه الآية على التوحيد والأسماء والصفات، ثم طالبهم أن يصدقوه فيما أخبرهم عن الله عزوجل)[١].

هكذا يقسم ابن خفيف الإيمان إلى وهبي وكسبي ويجعل القسم الثاني فرضًا على كل مسلم، وفي موضع آخر يوضح ابن خفيف ما هو المكتسب وما هو الوهبي في الإيمان، فيقول: إن على المسلم (أن يعتقد أن معرفة الإثبات للصانع ضرورة، ومعرفة الصفات مكتسبة، ومعرفة التخصيص موهبة، وأصل الإيمان موهبة وشرائطه مكتسبة)[٢].

والواقع أن ابن خفيف هنا حين يقرر أن أصل الإيمان موهبة وشرائطه مكتسبة إنما يقصد إلى بيان ما عليه أهل السنة والجماعة في مسألة الهداية والتوفيق، حيث يرون أن الله سبحانه وتعالى يشرح صدور من أراد للإيمان ويتولى توفيقهم ويعينهم عليه ويسهل لهم السبيل إليه كل ذلك هداية منه ــ تعالى ــ لهم، ويستدلون في هذا الصدد بآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥][٣].

---

(١) الاقتصاد صـ٢٨٩ .

(٢) ابن خفيف: المعتقد الصغير صـ٣٠٩ ـــ ٣١٠ بتحقيق د/ قدري الديب، وزميله ط١ سنة ٢٠٢٢ ـــ مكتبة دار الإمام الرازي ـــ القاهرة.

(٣) راجع في تفاصيل مذهب أهل السنة في هذه المسألة: الإمام الماتريدي: تأويلات أهل السنة جـ٤ صـ٢٥٤، وابن فورك: مجرد مقالات الأشعري صـ١٠٤، والباقلاي: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل صـ٣٧٧، والصابوني: البداية في الكفاية صـ١٣٧، والجرجاني: شرح المواقف جـ٨ صـ١٨٨، وملا علي القاري: منح الروض الأزهر صـ٣٦٤ .

وهذا المذهب السُّني يخالف تمامًا ما ذهبت إليه المعتزلة من أن الله تعالى أعطى العباد القدرة على اختيار الإيمان أو الكفر، وبالتالي لو اختاروا أيهما فإنه يكون حدث من جهتهم وحصل بدواعيهم وقصودهم ومن هنا يُنسب إليهم، ولا يجوز أن يوصف بأنه من الله تعالى ومن عنده إلا على سبيل المجاز والتوسع، وقاموا بتأويل الأدلة التي استدل بها أهل السنة في هذا المقام(١).

وبالطبع فإن ابن خفيف كمعبِّر عن أهل السنة الذين هو منهم يقرر أن أصل الإيمان هو اصطفاء من الله تعالى واختيار منه سبحانه وتعالى، ولكن شرائطه من تصديق بما يجب له سبحانه وما يجوز وما يستحيل عليه وكذا ما يتعلق بالأنبياء والغيبيات والإقرار بذلك والعمل بمقتضاه هي أفعال ينالها العبد باكتسابه.

٤ – يوجب ابن خفيف على المريد أن يعتقد أن العمل داخل في مفهوم الإيمان:

فيقول: (ثم يلزم المريدان يعلم أن الأعمال من الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧] وذلك قسط الجوارح من الإيمان، فدخل في هذه الآية جميع الأعمال من الفرض والنفل، وهو مسمى بتسمية الأصل إذ كان الباعث لهم على ذلك التصديق، وكل ذلك خضوع وتذلل للواحد القهار، وبذلك نطق النبي ﷺ حين قال أبوذر يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله وجهاد في سبيله فسمي الإيمان عملاً، ثم أجمل ذلك كله ﷺ فقال: الإيمان بضع وسبعون بابًا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان، فصح أن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل الجوارح)(٢).

(١) راجع تفاصيل مذهب المعتزلة في هذه المسألة: القاضي عبدالجبار: شرح الأصول الخمسة صـ٧٧٨، والزمخشري: الكشاف جـ٤ صـ١٩٤ .
(٢) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٢٩١ .

وفي موضع آخر من كتبه يقرر ابن خفيف هذه الحقيقة وهي دخول العمل في الإيمان فيقول: (والإيمان قول وعمل ونية)[١].

وهكذا يتفق ابن خفيف مع جماهير أهل السنة في هذه القضية[٢]، على أن هناك مخالفين لأهل السنة هنا وأشهرهم:

الجهمية: حيث يرون أن الإيمان هو المعرفة بالقلب فقط[٣].

الكرامية: يرون أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط دون القلب[٤].

المعتزلة: حيث يرون أن الإيمان يشمل أداء الطاعات كلها من عمل القلب واللسان وسائر الجوارح ولكنهم اختلفوا في الطاعات فمنهم من اعتبر أن الطاعات هي الفرائض والنوافل جميعًا، ومنهم من قصرها على الفرائض، وهم مع ذلك يرون أن العاصي ليس كافرًا، كما أنه ليس مؤمناً بل هو في منزلة بين المنزلتين، أي بين الكفر والإيمان، وهي منزلة الفسق[٥].

الخوارج: يذهبون إلى ما ذهب المعتزلة لكنهم يُكَفِّرون العصاة فمن عصى الله تعالى في شيء كان كافرًا كفر عقيدة[٦].

وقد اهتم ابن خفيف بمسألة العقيدة اهتمامًا كبيرًا، فألّف فيها كتبًا مستقلة مثل كتاب "الاعتقاد" و"المعتقد الصغير" و"المعتقد الكبير" وغيرها[٧] وقد بين فيها عقيدة أهل السنة والتي يمكن ذكرها باختصار في قوله: (إن العاقل من صحح اعتقاده عدة

---

(١) ابن خفيف: المعتقد الصغير صـ٣٠٣ .

(٢) يراجع: القاسم بن سلام كتاب الإيمان صـ٥٣، وابن منده: الإيمان جـ١ صـ١٣، وابن عبدالبر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد جـ٩ صـ٢٤٣ .

(٣) راجع في رأي الجهمية: الأشعري: مقالات الإسلاميين جـ١ صـ٣١٢، والبغدادي:الفرق بين الفرق صـ١٦٣، والشهرستاني:الملل والنحل جـ١ صـ١٠١ .

(٤) راجع في رأي الكرامية: مقالات الإسلاميين جـ١ صـ٢٠٥، والفرق بين الفرق صـ١٧١، والملل والنحل جـ١ صـ١٢٨ .

(٥) راجع في رأي المعتزلة: شرح الأصول الخمسة صـ٦٩٧، والزمخشري: المنهاج في أصول الدين صـ١٧ .

(٦) راجع في رأي الخوارج: مقالات الإسلاميين جـ١ صـ١٥٧، والفرق بين الفرق صـ٥٥، والشهرستاني: الملل والنحل جـ١ صـ١٢٩ .

(٧) راجع: الجنيد الشيرازي: شد الإزار صـ٤٢ ـــ ٤٣ .

للقاء ربه، فأول ما يحتاج إليه العبد اعتقاده التوحيد ليتم به سائر الأعمال، فيعتقد أن الله واحد لا من حيث العدد ولا كالآحاد، وأنه شيء لا كالأشياء، وأنه لا شبه له من خلقه، ولا ضد له في ملكه، ولا ند له في صنعه، ولا هو جسم ولا عرض ولا جوهر، وليس بمحل للحوادث ولا الحوادث محل له، ولا حال في الأشياء ولا الأشياء حالة فيه، وأنه العالم بما كان وبما يكون وبما لا يكون وبما لو كان كيف يكون...)[1].

ونلاحظ في هذا النص أنه جعل من أول واجبات المسلم العاقل عمومًا أن يصحح عقيدته ويجعلها عدة للقاء ربه، فإذن يكون هذا من أوائل واجبات الصوفية من باب أولى.

وكما هو واضح في هذا النص ــ أيضًا ــ اتفاق هذه العقيدة التي ذكرها ابن خفيف مع ما ذكره غيره من أهل السنة وصدروا به كتبهم لبيان مفردات العقيدة السَّنية.

فالكلاباذي يقول تحت عنوان: شرح قول الصوفية في التوحيد: (اجتمعت الصوفية على أن الله واحد أحد فرد صمد قديم عالم قادر حتى سميع بصير عزيز عظيم جليل كبير جواد ...، موصوف بكل ما وصف به نفسه من صفاته، مسمى بكل ما سمي به نفسه، لم يزل قديمًا بأسمائه وصفاته غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه لا يشبه ذاته الذوات ولا صفته الصفات، ولا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم....)[2].

والقشيري كذلك يقول تحت عنوان: بيان اعتقاد هذه الطائفة ــ أي الصوفية ــ في مسائل الأصول: (اعلموا ــ رحمكم الله ــ أن شيوخ هذه الطائفة بنو قواعد

(١) ابن خفيف: المعتقد الصغير صـ٢٦٠ وما بعدها.
(٢) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف صـ٣٣ وما بعدها.

أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل.....)[١].

ويقول أيضًا أن الصوفية: (احكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد) [٢].

ويذكر القشيري قول الجنيد: (التوحيد إفراد القدم من الحدث)[٣].

ويذكر القشيري كذلك عن أبي محمد الحريري قوله: (من لم يقف على علم التوحيد يشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور في موارد التلف)[٤].

ثم يشرح القشيري هذا القول بقوله: (يريد بذلك أن من ركن إلى التقليد ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سنن النجاة ووقع في أسر الهلاك) [٥].

ثم يذكر القشيري أن الصوفية اهتموا اهتمامًا بالغًا ببيان العقيدة الصحيحة، وأهم ما فيها هو التوحيد، ولم يقصروا في هذا البيان بوجه من الوجوه، فيقول: (ومن تأمل ألفاظهم وتصفح كلامهم وجد في مجموع أقاويلهم ومتفرقاتهم ما يثق بتأمله أن القوم لم يقصروا في التحقيق عن شأو، ولم يعرجوا في الطلب على تقصير)[٦].

ثانيًا: ارتباط التصوف بالشريعة وعلومها ارتباطًا وثيقًا:

لقد كان من أبرز معالم منهج ابن خفيف في التصوف ارتباط التصوف عنده بالشريعة وعلومها ارتباطًا وثيقًا في كافة الأمور صغيرها وكبيرها، فأتقن علمين

(١) القشيري: الرسالة جـ١ صـ١٩ .
(٢) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٢٠ .
(٣) نفس المصدر صـ٢٠ .
(٤) نفسه جـ١ صـ٢٠ .
(٥) نفسه جـ١ صـ٢٠ .
(٦) نفسه جـ١ صـ٢٠ .

من أهم علوم الشريعة وهما الحديث والفقه، والتزم السنة النبوية في جميع أحواله، وقرر أنه لا يجوز بحال من الأحوال التساهل في الشريعة وأحكامها بل جعل الالتزام بآداب الشريعة سببًا لتفضيل بعض الصوفية على بعض.

ويمكن تناول هذا المعلم المنهجي للتصوف عند ابن خفيف فيما يلي:

١ – إتقانه بل وتعمقه في علم الحديث الشـــريف: لقد كان علم الحديث هو أول علم تعلمه ابن خفيف بعد دخوله في طريق التصوف مباشرة، وذلك بنصيحة من شيخه الأول في التصوف "أحمد بن يحيى" الذي أوصاه بأخذ علم الحديث عن كبار المشايخ المعاصرين له، بل أحضرهم وأوصاهم بابن خفيف خيرًا، ثم انطلق ابن خفيف في ميدان علم الحديث بقوة حتى أصبح من محدثي عصره، حتى طُلب منه أن يجلس للإملاء فجلس وقتًا قصيرًا ثم انصرف عن إملاء الحديث.

فأما بدايته في طلب علم الحديث فيتحدث عنها قائلاً: (خطر لي يومًا أن أشتغل فترة بدراسة الحديث وأن أحصل على طرف من علم الأخبار والسنن، وفي ذلك العصر كان هناك اثنان مشهوران بعلم الحديث ونقل الأخبار، أحدهما: عبدالله بن أحمد الشارداني، والآخر: عبدالله بن جعفر الأزرقاني، ورأيت أن مشاورة الشيخ أحمد بن يحيى واجبة في هذا الأمر، كما رأيت أن أستعين بهمته، فأرسل الشيخ أحمد إليهما، فاستدعاهما وأوصاهما بي خيرًا حتى لا يبخلا علي بمعروف، ويبذلا الجهد المطلوب، ثم أخذت أذهب إلى مجلسهما كل يوم أستملي الحديث من فيهيهما، وأقتبس من الفوائد الأخرى)[١].

وهكذا: ابتدأ ابن خفيف في طلب علم الحديث ودراسته على مشاهير المشايخ في عصره.

وأما اجتهاده الكبير في طلب علم الحديث: فمما يذكر لابن خفيف أنه كان مجتهدًا في كافة العلوم والأعمال التي يتصدى لها، ومن ذلك علم الحديث، فقد كان

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٩٢ .

بعض الصوفية يعيبون عليه طلب علوم الظاهر ويلومونه في ذلك فكان لا يستجيب لهم بل اجتهد في تحصيل علم الحديث حتى إنه كان يتخفى منهم في ذهابه إلى مجلس الحديث.

يقول الذهبي: (قال ابن باكويه: نظر أبوعبدالله بن خفيف يومًا إلى ابن أم مكتوم وجماعة من أصحابه يكتبون شيئًا، فقال: ما هذا؟ قالوا: نكتب كذا وكذا، قال: اشتغلوا بتعلم شيء، ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي، والورق في حجزة سراويلي وأذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تفلح، ثم احتاجوا إليّ)[١].

ويذكر ابن عساكر شيئًا من اجتهاد ابن خفيف في طلب هذا العلم حين قابل شيخًا من المحدِّثين فانتهز هذه الفرصة ليتعلم منه رغم حدوث ألم شديد له في قدمه، يقول ابن عساكر: (قال ابن خفيف: خرجت يومًا من الأيام إلى الصلاة وكنت حافي القدمين على سبيل الرياضة، فاستقبلني إبراهيم بن روزبة، وكان من كبار المشايخ في الحديث، ففاتحني في الكلام، وقد سقطت ثلجة وجمدت رجلي، ولم يعلم أني حافي القدمين، فلم يزل يحدثني إلى أن أذَّنُوا ــ أي للصلاة ــ فلما أردت الانصراف لم يمكنني المشي مما قد أترف رجلي من التزاقه على الجليد، فعلم الشيخ واغتم، وأوهمته أني في عافية، فرجعت إلى البيت وبقيت أربعين يومًا لا أقدر على النهوض واحتجت إلى المعالجات)[٢].

ومن اجتهاده في طلب علم الحديث أيضًا أنه ارتحل في طلبه على أيدي المشايخ المشهورين في أماكن متعددة، ويذكر أبوالحسن الديلمي مجموعة كبيرة من المشايخ الذين أخذ عنهم ابن خفيف في علم الحديث ويقترب عددهم من خمسين شيخًا، يقسمهم كالآتي:

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٨ صـ٣٦٥ .
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق جـ٥٢ صـ٤٠٨ .

– مشايخه من شيراز: ويذكر ستة عشر شيخًا منهم أشهرهم الأزرقاني وإبراهيم بن روزبة وغيرهما.

– ومن الغرب: يذكر واحدًا وعشرين شيخًا أشهرهم: حماد بن مدرك وأبوالطيب النعمان بن أحمد القاضي وأبوالعباس بن نصر بن كيسان وغيرهم.

– ومن البصريين: أبوخليفة الفضل بن حماد الجمحي ومن في طبقته.

– ومن البغداديين: محمد بن جرير الطبري ومن في طبقته.

– ومن أهل فسا: أحمد بن يحيى المعروف بجور، وعلي بن الحسين بن مهران وغيرهما.

– ومن الاصطخريين: محمد بن أحمد السوقي القاضي[1].

ويبدو أن ابن خفيف قد أحرز تقدمًا في هذا العلم وأتمه فاحتفت به أسرته وأقامت دعوة للمشايخ احتفالاً بإتمام هذا العلم.

يقول ابن خفيف: (لما فرغت من كتابة الحديث عن ابن سعدان، ورجعت من فَسَا إلى شيراز، كانت لوالدتي دعوة حضر فيها المشايخ والصوفية)[2].

وبهذا أتم ابن خفيف طلب علم الحديث على هؤلاء المشايخ الكثيرين الذين كان لهم بلا شك أثر كبير في صقل ابن خفيف وترسيخ قدميه في هذا العلم.

وأما جلوسه الإملاء الحديث: فيذكر الديلمي عن بعض تلاميذ ابن خفيف قائلاً: (يقول محمد بن علي: لم يجلس الشيخ ــ أي ابن خفيف ــ طول عمره لإملاء الحديث إلا مرة واحدة، وكان بعد أن ألحّوا عليه كثيرًا، وحين جلس لم يكن هادئ البال لهذا الأمر، وكان يقول: ليس هذا عملي، وفي هذه المرة أملى بعض الأحاديث)[3].

---

(١) راجع في عدد هؤلاء المشايخ وأسمائهم: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٢٥٢ وما بعدها، وراجع: ابن عساكر: تاريخ دمشق جـ٥٢ صـ٤٠٨، والذهبي: تاريخ الإسلام جـ٨ صـ٣٦٥ .

(٢) الجنيد الشيرازي: شد الإزار صـ٣٦٩ .

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٢٥٣ .

وذكر أبوالحسن الديلمي بعض الأحاديث التي رواها ابن خفيف[١].

ومما يذكر في تبحر ابن خفيف في علم الحديث أن له كتابًا كبيرًا جمع فيه أحاديث الدعوات والأذكار وفضائلها سماه: "كتاب الفضائل وجامع الدعوات والأذكار".

وقد أمر ابن خفيف المريدين بلزوم منهج أهل الحديث: بناء على ما تقدم من تبحر ابن خفيف في علم الحديث تعلمًا وحفظًا ورواية فقد وجدناه يأمر المريدين بلزوم منهج أهل الحديث وطلب علومهم خاصة الصادقون منهم وبخاصة المتقدمون.

يقول ابن خفيف: (وعليك بمنهج أصحاب الحديث والأخذ من فقهائهم والتعلق بآثارهم، والطلب عن مذاهبهم، والكشف عن صحة روايتهم والنزول في أحوالهم، واحذر المفتون منهم والمغرور من جملتهم، فإنهم أعز الناس إذا سلكوا منهاج أوائلهم، وأفتن الناس إذا فسدوا فبهم تهلك الأمة وتهلك الشريعة فاجعل أوصاف المتقدمين معيارهم....)[٢].

وهذا النص السابق رغم أنه وارد في وجوب اتباع منهج أهل الحديث إلا أنه يفرق بين نوعين منهم:

- الصادقون المخلصون: وهؤلاء يجب لزومهم واتباعهم وعدم مفارقتهم.
- الأدعياء المنتسبون: وهؤلاء يجب الحذر منهم وعدم اتباعهم ووجوب هجرهم.

وفي موضع آخر من كتبه يزيد ابن خفيف هذا الأمر وضوحًا فبين أصناف المشتغلين بالسُّنة، وبين أنهم ثلاث طوائف: (طائفة المحدثين الحافظين لسنة خير المرسلين من تحريف القوم الضالين.

(١) سيرة الشيخ الكبير صـ٢٥٣وما بعدها، وراجع:الذهبي:تاريخ الإسلام جـ٨صـ٣٦٥ .
(٢) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٤٠٩ .

وطائفة الفقهاء الكاشفين للحلال والحرام المبينين لما ورد به الشرع من أحكام ثم طائفة الصوفية المنازلين لحقائق العلم الآخذين بأوصافه)[١].

ثم ذكر بعد ذلك أن الصوفية هم أعلى القوم وأسناهم منزلة، لأن المدح خرج لهم من الله ورسوله، فإذا كان المحدثون مخبرين عن رسول الله ﷺ، والفقهاء مبينين لكيفية أفعاله وأحواله، فإن الصوفية منازلون لها وداخلون فيها[٢].

٢ – علم الفقه: كان من علوم الشريعة التي تعلمها ابن خفيف بل وأتقنها وتبحر فيها علم الفقه الذي به تصحيح العبادات، وإذا كان ابن خفيف قد قرر أن (الوصول إلى الله من غير طريق العبادة غير جائز)[٣] فإن هذه العبادة لا تصح بغير علم، والعلم الذي به تصحيح العبادات ومعرفة كيفياتها هو علم الفقه.

لذلك وجدنا ابن خفيف يطلب علم الفقه ويتعلمه، وقد سبق منذ قليل أن الله وفق ابن خفيف وتلقى هذا العلم على يد أشهر فقهاء عصره وهو أبوالعباس بن سريج.

ويبدو أن ابن خفيف كما برع في علم الحديث كذلك قد برع في علم الفقه وأتقنه حتى صار فقيهًا، كما ينقل ابن الصلاح عن السلمي أن ابن خفيف (من أعلم المشايخ بعلوم الشريعة من الكتاب والسنة، وهو فقيه على مذهب الشافعي)[٤].

وقال ابن السبكي وابن الملقن كلاهما عن ابن خفيف: (كان من أعلم القوم بعلوم الظاهر)[٥].

وهذان الإمامان مصنفان في ذكر طبقات الفقهاء على المذهب الشافعي، فلا شك أن ابن خفيف بلغ في الفقه شأنًا كبيرًا جعله من المذكورين بين مشاهير الفقهاء.

---

(١) ابن خفيف: فضل التصوف على سائر المذاهب صـ٤٥ .
(٢) فضل التصوف على سائر المذاهب صـ٥٥ .
(٣) ابن خفيف: المعتقد الصغير صـ٣٣٤ .
(٤) ابن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية جـ١ صـ١٥٦ ـــ بتحقيق: محيى الدين علي نجيب ـــ ط١ ـــ شركة قَدْمُس للنشر والتوزيع ـــ سوريا.
(٥) راجع: ابن السبكي طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ١٥٠، وابن الملقن العقد المذهب صـ٢٢٧ .

وبلغ من إتقان ابن خفيف لعلم الفقه أنه صار من المؤلفين فيه كما تشير إلى ذلك المستشرقة "أَنَّا ماريا شميل" حيث تقول عن ابن خفيف: (أنه ظل متمسكًا بالشريعة حتى أدق تفاصيلها، واهتم بالفقه والشريعة بضع سنوات، ومن بين آثاره كتاب "المنهاج في الفقه")[١].

وبالفعل كان لابن خفيف مصنفات في الفقه مثل هذا الكتاب الذي ذكرته أنا ماريا شميل وإن كان الديلمي يذكره باسم "المنهج في الفقه"[٢].

وله أيضًا كتاب "الفصول في الأصول" وهو في أصول الفقه[٣].

وهكذا أتقن ابن خفيف هذين العلمين الشرعيين المهمين وبرع فيهما، وقد اتخذ منهما ميزانين لأمور التصوف كلها.

٣ – لا يجوز التساهل في أمر من أمور الشريعة: كان من معالم المنهج الصوفي عند ابن خفيف التزامه الكامل بالشريعة، بحيث يقبل ما يتفق مع الشرع ويرفض كل ما يظهر منه مخالفة للشريعة، ونستطيع أن نستشهد لهذه النقطة من سيرة ابن خفيف بشاهدين:

أولهما: وهو يتعلم حرفة في بداية حياته: يقول ابن خفيف: (تعلمت صناعة الفلكات وكنت أقيم بها أودي، وذات يوم رأيت أستاذي يقطع عظام بعير ميت، وكان عنده من هذه العظام بضع صناديق ممتلئة، فقلت له: هل ستصنع فلكة من هذه العظام النجسة؟ قال بلى، فنهضت، وتبت عن هذه الصنعة)[٤].

فبالرغم من حاجة ابن خفيف إلى هذه الصنعة التي يقيم بها أوده ويعتمد عليها في كسب قوته الضروري إلا أنه لما رأى فيها مخالفة شرعية لم يوافق عليها وتركها.

(١) مقدمة المستشرقة آنا ماريا سميل طاري لسيرة الشيخ الكبير صـ٢٩ .
(٢) راجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٢٥٧ .
(٣) نفس المصدر صـ٢٥٧ .
(٤) سيرة الشيخ الكبير ص٦٦ .

ثانيهما: أن بعض المشايخ من الصوفية كانوا يتكلمون في مسألة من المسائل، وكان ابن خفيف حاضرًا فلما رأى الكلام خاليًا من الدليل ناقشهم واعترض عليهم وطالبهم بدليل شرعي مقبول٠

يقول ابن خفيف: (كان أبوعلي الوارجي ــ وهو من مشايخ الصوفية ــ قد جاء من مصر وذات يوم كنت جالسًا مع جماعة من المشايخ، وكان أبوسعيد الأعرابي حاضرًا، فوجه رجل إلى أبي علي سؤالاً، وأخذ أبوعلي يسوق كلامًا كثيرًا فيه، ثم أخذ يكرر هذه العبارة: حينما يصل العارف إلى درجة الكمال لا يضره وجود المعلوم، فبالنسبة إلى أحوال العارف يستوي الموجود والمعدوم، وكان المشايخ حاضرين جميعًا، ولم يعترض أحد، فبدا في خاطري معارضة هذا الكلام، وأخذت أقول: يا سيدي: إذا كنت قد شاهدت هذا المعنى في واقعة، أو تقوله على سبيل المكاشفة فهو مُسَلَّم لك ولا جدال فيه، وأما إذا كنت تقوله على سبيل الشريعة فيلزمك لهذا الكلام دليل من الكتاب أو السنة أو كلام السلف، وكان المشايخ يريدون مني أن أتجاوز عن كلامه، فأشار إليّ أبوسعيد الأعرابي قائلاً: استمر وأتمم كلامك، وكلما أوردت دليلاً من الكتاب أو السنة كان أبوعلي يقول: هذا الحديث وارد في حق الأمة، وكنت أقول: ألست من الأمة؟

قال أبوعلي: يا ابن خفيف: إن التجاوز عن الإخوان في المجادلة من قبيل الإحسان، فقلتُ: لا يجوز التساهل في الشريعة) [1]٠

فعلى الرغم من أن ابن خفيف يجلس مع جملة من المشايخ، ورغم أنهم يتحدثون في مسألة من دقائق التصوف المتعلقة بحال العارف الذي يصل إلى درجة الكمال في الطريق الصوفي، وهذه أمور تغري السامع بالسكوت، سيما إذا كان مريدًا مبتدئًا وسط مشايخ كبار، ولكن ابن خفيف لم يُسلِّم لهذا الكلام تسليمًا، بل جعل الشيخ المتحدث بين أمرين:

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٩٢ ٠

إما أن يكون واقعة فردية، أو حالاً خاصة به، فهذا مُسَلّم ولا اعتراض عليه.

وإما أن يكون هذا حكمًا شرعيًا، فلابد له من دليل شرعي وشاهد من القرآن أو السنة أو أقوال السلف، فابن خفيف يرد الجميع إلى ساحة الشريعة ليكون لها الحكم أولاً وأخيرًا، ثم أصدر ابن خفيف عبارته الصريحة التي أصبحت من معالم منهجه الصوفي وهي قوله: لا يجوز التساهل في الشريعة.

٤ – مناط التفضيل بين الصوفية هو الالتزام بالشريعة وعلومها: لقد لاحظنا أن ابن خفيف كان يقدر مشايخ التصوف ويجلهم، ويطيعهم طاعة تامة إلا حين يظهر منهم ما يُشْتَمُّ منه رائحة مخالفة للشريعة فكان يناقش ويوجه إلى ضرورة الالتزام بالشريعة.

ووجدنا من فرط اهتمامه بالشريعة أنه جعل مقياس التفضيل بين الصوفية هو مدى التزامهم بالشريعة وعلومها؛ ولذلك فَضّل خمسة من المشايخ الكبار على غيرهم وأمر المريدين بالاقتداء بهم وهم ــ كما مر ــ الحارث المحاسبي وأبوالقاسم الجنيد وأبومحمد رويم وأبوالعباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكي[١].

وقد تقدم أن ابن خفيف ذكر العلة في تفضيل هؤلاء والنص عليهم بخصوصهم فقال: (لأن هؤلاء جمعوا بين العلم والحقائق، أما الشيوخ الآخرون فكانوا أرباب حال وأصحاب مقامات ومكاشفات، وقد صدر عنهم في حال الاستغراق بعض الكلمات التي لا تستقيم بميزان الشرع)[٢].

فهؤلاء المشايخ الخمسة المذكورون جمعوا بين العلم والحقائق، وإذا كان المقصود بالحقائق هي علوم التصوف فإن المقصود بالعلم هو علم الشريعة، وبالفعل وجدنا هؤلاء الخمسة لهم القدم الراسخة في علوم الشريعة مع شهرتهم كأئمة التصوف.

(١) راجع: نفس المصدر صـ١٠٩ .
(٢) سيرة الشيخ الكبير صـ١١٠ .

فالمحاسبي مثلاً: هو (علم العارفين في زمانه، وأستاذ السائرين، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، وهو شيخ الجنيد وهو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها، وله كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة، وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع)[١].

والمحاسبي كما يقول أبوعبدالرحمن السلمي: (من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات، له التصانيف المشهورة وأسند الحديث) [٢].

فالمحاسبي ــ إذن ــ تبحر في علوم الشريعة ــ فقهها وحديثها وكلامها ــ ولذلك كان أهلاً لأن يقيم تصوفه على دعائم شرعية راسخة فلذلك أمر ابن خفيف بالاقتداء به.

والجنيد كذلك من علماء الشريعة بجانب تقدمه المشهور في علوم التصوف حيث كان (فقيهًا تفقه على أبي ثور، وكان يفتي في حلقته وهو مقبول على جميع الألسنة)[٣].

والجنيد كما يقول القشيري: (سيد هذه الطائفة)[٤] أي الصوفية، ومع ذلك يشدد في التمسك بالشريعة وبنص على ذلك في كثير من أقواله، فهو الذي قال: (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر ــ أي التصوف ــ؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)[٥].

وقال أيضًا: (علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)[٦].

وقال أيضًا: (علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ)[١].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ٢ صـ٧٦٢ .
(٢) طبقات الصوفية صـ٥٨ .
(٣) نفس المصدر صـ١٢٩ .
(٤) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٧٩ .
(٥) نفس المصدر صـ٨٠ .
(٦) نفس المصدر صـ٨٠ .

وأبوالعباس بن عطاء كذلك كان معظمًا للشريعة والسنة إلى أقصى حد، حيث يروي القشيري عنه قوله (مَنْ ألزم نفسه أداب الشريعة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله) [٢].

وكذلك عمرو بن عثمان المكي: (كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة، وصحب كثيرًا من المشايخ القدماء وهو عالم بعلم الأصول وروي الحديث)[٣].

وقال عنه القشيري: (إمام الطائفة في الأصول والطريقة)[٤].

وهكذا فضل ابن خفيف هؤلاء المشايخ على غيرهم وأمر بالاقتداء بهم لأنهم جميعًا متمكنون من علوم الشريعة سيما الفقه والحديث، وهذا ما يجعل أحوالهم مأمونة، وكلماتهم مضمونة، بحيث لا يظهر على أحوالهم وأقوالهم ما يصادم الشريعة، وقد تشبه بهم ابن خفيف في أحوالهم تلك سيما المحافظة التامة على حدود الشريعة.

٥ – حضور الدليل الشرعي ــ قرآناً وسنة ــ في كل قضية من قضايا التصوف: لا شك أن هذا التقدير الكبير للشريعة وعلومها سوف ينعكس على تناول ابن خفيف لقضايا التصوف، وهذا ما حدث بالفعل حيث استدعى ابن خفيف في كل قضية صوفية تناولها ما يؤيدها من أدلة القرآن الكريم أو أدلة السنة المشرفة، يذكر كل فكرة مشفوعة بدليلها الشرعي من الآيات والأحاديث.

وبنظرة عابرة في أشهر كتبه في التصوف وهو كتاب "الاقتصاد" وجدنا ابن خفيف لا يتناول قضية إلا ويذكر فيها الآيات والأحاديث بحيث لم نجد قضية واحدة في كتابه هذا خلتْ من ذكر دليل قرآني أو حديث نبوي[٥]، وقد أحصيت هذه

(١) نفس المصدر صـ٨٠ .
(٢) نفس المصدر جـ١ صـ١٠٣ .
(٣) السلمي: طبقات الصوفية صـ١٦٣ .
(٤) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٩٣ .
(٥) راجع على سبيل المثال: الاقتصاد لابن خفيف صـ٢٨٤ وصـ٢٩٢ وصـ٢٩٤ وصـ٣١٨ وصـ٣٢٣ وصـ٣٤١ وصـ٣٤٦ وصـ٣٥٧ وصـ٣٨٦ وصـ٤٠٨ وغيرها.

الشواهد القرآنية والأدلة النبوية فوجدتها في كتابه هذا ــ على صغر حجمه ــ قد جاوزت خمسة وعشرين دليلاً من القرآن، وجاوزت واحدًا وستين دليلاً من الحديث الشريف، وهذا يدل بوضوح شديد على أن التصوف السني المقبول هو الذي شُيِّد على القرآن والسنة، وهذا هو ما أراد ابن خفيف التأكيد عليه من استحضار الآيات والأحاديث بكثرة في بحثه للقضايا الصوفية.

ثالثًا: التصوف إيجابي وليس سلبيًا: لقد توهم البعض أن التصوف هجر للحياة وترك لعمارتها، وأنه انزواء في بعض الأخلية أو الزوايا، ولكن هذا الوهم خاطئ، إذ التصوف عند المحققين يفيض بالإيجابية والحيوية التي توجب على المتصوف أن يكون متحركًا لكل ما هو نافع لنفسه وللناس من حوله، فكما يهتم الصوفي بالعبادة والاجتهاد فيها كذلك يهتم بإحراز نصيب من الدنيا، وهذا النصيب الدنيوي يوظفه للجانب الديني أيضًا.

يروي الغزالي قائلاً: (قال أبوقلابة لرجل: لأن أراك تطلب معاشك أحب إلي من أن أراك في زاوية المسجد) [١].

وأبوسليمان الدارني يقول: (ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزهما ثم تعبَّد) [٢].

ويروي الغزالي أيضًا: (أن الأوزاعي لقى إبراهيم بن أدهم رحمهم الله ــ تعالى ــ وعلى عنقه حزمة حطب، فقال له: يا أبا إسحق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك، فقال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة) [٣].

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٢ صـ٦٣ .
(٢) نفس المصدر جـ٢ صـ٦٣ .
(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٢ صـ٦٣ .

ويقول الزبيدي: (التعب في كسب الحلال يتضمن فوائد منها: استغناؤه عن الناس وعن إظهار الحاجة، لكن شرطه اعتقاد أن الرزق من الرازق لا من الكسب، ومنها: إيصال النفع للغير، ومنها السلامة من البطالة واللهو، ومنها: كسر النفس ليقل طغيانها، ومنها التعفف عن ذل السؤال) (١).

ومن هنا وجدنا الصوفية يلزمون المريدين بالاشتغال بحرفة يكتسبون منها قوتهم وما يلزم من شئونهم فاشتهروا بأسماء تدل على تلك الحرف والصناعات.

يقول الدكتور زكي مبارك عن الصوفية: (انظر إلى أسمائهم وألقابهم تجد فيهم الخوّاص والخراز والوقاد والصبّاغ والحداد والسماك والقصاب والدقاق، انظر إلى ألقابهم تجدهم كانوا أهل العمارة والصناعة والزراعة، انظر إلى ألقابهم تجدهم كانوا أقطاب السعي في سبيل الرزق الحلال)(٢).

وبناء على ذلك وجدنا ابن خفيف يهتم بتلك النقطة إظهارًا لإيجابية التصوف ودفعًا لشبهة السلبية أو تعطيل حركة الحياة عن الصوفية.

وقد وجدنا اهتمام ابن خفيف بهذه النقطة في جانبين: نظري، وعملي.

ففي الجانب النظري: نجد ابن خفيف يأمر المريدين بضرورة شغل أوقاتهم بكل ما هو نافع دينًا أو دنيًا، ويحذر المريد من تضييع أوقاته فيما لا ينفعه، ثم يأمره بأن تكون له حرفة يكتسب منها الضروري من قوته وما يلزمه من شئونه.

فأما عمارة الأوقات عمومًا بما ينفع: فيقول عنها ابن خفيف: (وليحذر المريد، فلتكن مراعاة ساعاته عامرة بضرب من ضروب الأذكار، وليحذر ساعات الغفلات فتكون ساعاته مقسومة من حين طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس فيكون سعيه:

(١) الزبيدي: إتحاف السادة المتقين جـ٥ صـ٤١٥ ـــ مؤسسة التاريخ العربي ـــ بيروت سنة ١٤١٤هـ.
(٢) د/ زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق جـ٢ صـ١٨٤ طبعة دار الكتب القومية بالقاهرة سنة ٢٠١٦م.

– إما طالبًا للعلم النافع، وإما أن تكون في طلب قوتك من وجهه وهو أجلّ السعي.

– وإما أن تكون في إقامة ما وظفت على نفسك من أورادك.

– أو تكون في سعي لقضاء حوائج إخوانك.

– أو تكون زائرًا لبعض الصالحين طلبًا لثواب رب العالمين.

– أو تكون معينًا لأخيك أو ضعيفًا بفضل علمك أو ذات يدك مما نجد السبيل إليه، وأقصد الجنائز على شرط الإخلاص، وعَوِّد نفسك عيادة المرضى، وخاصة المطروحين بالأطراف، فأعنهم بما يعود عليهم النفع بمالك ولسانك وبذل جاهك، وتنبيه أهل الفضل على أحوالهم، ورغبهم في ثواب تفقدهم، وما يعوض الله لمن قام لمريض فقير بإعطاء شهوة أو سد فاقه أو خدمة لنفسه فإن ذلك مما يقربك إلى الله عزوجل)[1].

هكذا يكون الصوفي إيجابيًا في استعمال أوقاته في كل ما ينفعه أو ينفع الناس من حوله، وقد أشار ابن خفيف في النص السابق إلى جملة من الأعمال النافعة للصوفي ولمجتمعه عمومًا.

والواقع أن هذا المسلك لم يكن خاصًا بابن خفيف وحده، بل هو مسلك كل مسلم يحرص على وقته ألا ينقضي إلا في شيء نافع دينًا أو دنيا.

يقول ابن عجيبة: (عمر المؤمن هو رأس ماله، فيه ربحه وخسرانه فمن شدَّ يده عليه كان من الفائزين، ومن ضيعه في البطالة والتقصير كان من الخاسرين، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات، وبذلوا مجهودهم

(١) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٣٨٤ ـــ ٣٨٥.

في اغتنام الساعات، ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير، ولم يسمحوا لها في الراحة والبطالة بقليل ولا كثير)[١].

وأما بالنسبة لاحتراف حرفة يكتسب منها المريد قوته الضـــروري: فقد وجدنا ابن خفيف يلزم الصوفيَّ في كل مراحله بداية ووسطًا ونهاية بضرورة اتخاذ حرفة يكفي بها نفسه وحاجاته الضرورية ويصون نفسه بها عن مسألة الخلق٠

فيجعل ابن خفيف السعي في كسب الحلال فريضة من الفرائض ويستدل لذلك بحديث شريف، يقول ابن خفيف: (فأما طلب الحلال فهو من أصول الدين الذي حث عليه، وهو أجل عمدة الإسلام كما قال ﷺ: [طلب الحلال فريضة بعد فريضة الإسلام][٢] فقارن ﷺ فرضه بفرض التوحيد والشرائع المبنية على الإسلام، وهذه الحالة تلزم العارف في تناهيه والسائر في مباديه والمريد في أحواله، وخاصة أهل النسك من المريدين) [٣].

إذن: من واجب الصوفي في كل مراحله ألا يتخلى عن الكسب الحلال عن طريق حرفة يحترفها ليحرز منها نصيبه الضروري من الدنيا٠

ويُحذِّر ابن خفيف تحذيرًا شديدًا من ترك الحرفة وأسباب المكاسب؛ لأن ذلك سيجره إلى المذلة للخلق، وبالتالي الانصراف عن مقصده الأساسي وهو الانشغال بالخالق٠

يقول ابن خفيف: (وليحذر المريد الصادق ألا يترك المكاسب والحرفة وطلب ما يعود عليه من مصالح معاشه احتياطًا لدينه ونزاهة لمذهبه) [٤].

---

(١) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم صـ٤٤٧ ـــ راجعه: محمد أحمد حسب الله ـــ دار المعارف ـــ القاهرة ـــ بدون تاريخ٠

(٢) أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب وله شواهد بعضها يؤكد بعضًا. راجع: المناوي: المقاصد الحسنة صـ٥٠٥ برقم ٨٠١ بتحقيق محمد الخشت ط١ ـــ ١٤٠٥هـ ـــ دار الكتاب العربي ـــ بيروت٠

(٣) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٣٧٨ ٠

(٤) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٤٠١ ٠

وينص ابن خفيف على خطورة شديدة ستترتب على ترك الحرفة فيقول: إن ترك الحرفة سيجر المريد (إلى الطمع وتكالب نفسه على الشَّره واستعمل الطلب والتكلف، فألبسه الدوران في الأسواق والسكك، وأخرجه إلى البلدان طمعًا فيما في أيدي الناس)[1].

ثم يستدل ابن خفيف ــ كعادته ــلهذا بدليل شرعي فيقول: (فالمكاسب من وجهها على شرط ما أُبيح له من قول الرسول ﷺ لخير له حتى قال: [لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه][2]).

وفي الجانب العملي وجدنا ابن خفيف يقوم بتطبيق هذه النقاط الإيجابية تطبيقًا عمليًا.

فبالنسبة لعمارة الأوقات في الأعمال النافعة دينًا أو دنيا: وجدنا ابن خفيف يقسم أوقاته في هذه الأمور النافعة ويستعملها منذ حداثة سنة.

يقول ابن خفيف: (كنت قد نظمت أوقاتي في زمان الطفولة من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح، بحيث لم أكن لأضيع لحظة واحدة، ففي بداية النهار حينما يشرق الصباح كنت أقوم بصلاة الفرض واشتغل بقراءة القرآن، وذلك حتى ترتفع الشمس في السماء، ثم أصلي الضحى وأعمل بصناعة الأحقاق، ولم يكن أعرف من الحرف ما يزيد عنها، ثم أقوم بهذا الأمر حتى صلاة الظهر، فأقوم بفرضها وسننها، وأقوم ببعض النوافل إلى صلاة العصر، فأقوم بها فرضًا وسنة، وحينما انتهى من صلاة العصر أذهب إلى سماع الحديث حتى المغرب، وحينما أفرغ من فرض المغرب أتلو أورادي حتى صلاة العشاء، وحينما انتهى منها لا

(١) نفس المصدر صـ٤٠١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة كتاب الزكاة باب الاستعطاف عن المسألة جـ٢ صـ١٢٣ رقم ١٤٧٠.

أترك أورادي، ثم أذهب إلى منزلي وأفطر، وأقوم بعد ذلك بكتابة الأحاديث الأربعين للرسول ﷺ، ثم أنام ساعة من الليل، واستيقظ بعد ذلك فأصلي الصبح)[١].

هكذا بالغ ابن خفيف في مراعاة أوقاته والمحافظة التامة عليها بحيث لا تنقضي إلا في عمل نافع، ولم يقتصر هذا العمل النافع على العبادة فقط، بل كان هناك وقت لتعلم العلوم ومنها علم الحديث، وكان هناك وقت للاشتغال بحرفة يكتسب منها أمور معاشه.

وأما بالنسبة لاحتراف حرفة: فقد وجدنا ابن خفيف يطبق هذا الأمر تطبيقًا عمليًا فيجتهد في احتراف حرفة مناسبة يكتسب منها الضروري لمعاشه، فتعددت حرقه وتنوعت ومنها:

صناعة الفلكات[٢]: وكانت هذه أول صنعة يتعلمها ابن خفيف ويقول في ذلك: (فتعلمت صناعة الفلكات، وكنت أقيم بها أودي، وذات يوم رأيت أستاذي يقطع عظام بعير ميت وكان عنده من هذه العظام بضع صناديق ممتلئة، فقلت له: هل ستصنع فلكة من هذه العظام النجسة؟ قال: بلى، فنهضت، وتبت عن هذه الصنعة وطهرت بدني وثيابي وقضيت صلواتي)[٣].

نحت المغازل[٤]: يقول ابن خفيف: (وذهبت وتعلمت نحت المغازل، وزاولت هذه الحرفة حتى جُرِحتُ منها ذات يوم فتركتها) [٥].

القِصَارة[١]: يقول ابن خفيف: (فذهبت إلى قصّار وأخذت أدق الثياب طيلة النهار، فسقطت من شدة الجوع وانكسرت ركبتي فتركتها أيضًا)[٢].

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير صـ٩٣ .

(٢) الفلكات: جمع الفلكة وهي ما يوضع في قمع الدهن ونحوه أو قطعة خشب توضع في خرق القربة. راجع: ابن منظور: لسان العرب جـ١ صـ٤٧١ ـــ ط٣ ـــ سنة ١٤١٤هـ ـــ دار صادر ـــ بيروت، وراجع: الفيروزآبادي: القاموس المحيط صـ٩٧ ط٨ سنة ١٤٢٦هـ ـــ مؤسسة الرسالة ـــ بيروت.

(٣) سيرة الشيخ الكبير صـ٩٩ .

(٤) المغازل: جمع المغزل وهو اسم لما تغزل به المرأة. راجع: ابن منظور: لسان العرب جـ١١ صـ٤٩٢، والقاموس المحيط صـ١٠٣٨ .

(٥) سيرة الشيخ الكبير صـ٩٩ .

وقد لجأ ابن خفيف إلى مشايخه يشاورهم كعادته فأشاروا عليه بترك القصارة لصعوبتها وحاجتها إلى قوة بدنية لا تليق بزاهد متقشف لا يأكل إلا الضروري من الطعام، وأشاروا عليه بحرفة أخرى وهي:

صناعة الأحقاق[٣]: ويتحدث ابن خفيف عن هذه الحرفة التي جاءت بتوجيه من مشايخه فيقول: (ثم تشاورت في هذا الأمر مع المشايخ وسألتهم: أي عمل أقوم به وأحصل منه على ما يسد رمقي؟ فقالوا: القصارة حرفة صعبة لا يصلح لها إلا شخص ذو قوة، والمصلحة أن تتعلم صناعة الأحقاق، فذهبت إلى أبي محمد العتايدي وتعلمت منه هذه الحرفة، وكنت أكسب كل يوم درهمين أشتري أوراقًا بجزء منها وأجعل الباقي لنفقتي أنا ووالدتي) [٤].

صناعة النسخ: ويقول عنها ابن خفيف: (كنت في الكوفة أعمل وراقًا، وكنت أجمع كل ما أكتسب من الصنعة حتى يأتي أبوتراب إلى الكوفة وأنفقه عليه، وفي ذات مرة تجمع لديّ ستة عشر دينارًا....)[٥].

وتشير المستشرقة أنا ماريا شميل إلى أن ابن خفيف: (كان يكتسب معاشه من صناعة النسخ ... وكان يقوم بنسخ الأحاديث)[٦].

ولا شك أن ابن خفيف في احترافه حرفة يكسب منها قوته الضروري ينطلق من منطلق شرعي صحيح ومبدأ إسلامي أصيل، قال عنه النبي ﷺ: (ما أكل أحد

---

(١) القصّار والمقصِّر: المُحَوِّر للثياب لأنه يدقها بالقَصَرَة التي هي القطعة من الخشب وحرفته: القِصَارة. راجع: لسا العرب جـ٥ صـ١٠٤، والقاموس المحيط صـ٤٦٣ .

(٢) سيرة الشيخ الكبير صـ٩٩ .

(٣) الحقاق جمع الحُق والحُقة وهو وعاء صغير ذو غطاء منحوت من الخشب والعاج وغير ذلك مما يصلح أن يُنحت منه. راجع لسان العرب جـ١٠ صـ٥٦، والمعجم الوسيط جـ١ صـ١٨٨ .

(٤) سيرة الشيخ الكبير صـ٩٩ .

(٥) نفس المصدر صـ١٧٤ .

(٦) مقدمة المستشرقة أنا ماريا شميل لسيرة الشيخ الكبير صـ٢٣ .

طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده) [١].

وهكذا أظهر ابن خفيف أن التصوف إيجابي وليس سلبيًا خاصة في استعمال أوقاته في عمل نافع دينًا ودنيا وكذلك في احتراف حرفة يكتسب منه قوته ومعاشه، وقد بين ابن خفيف ذلك نظريًا وطبقه عمليًا.

خامسًا: بناء التصوف على المجاهدة والعزائم لا على الرخص والتساهل:

إن الصوفية باعتبارهم في الصف الأول من بين المسلمين في الإقبال على الله تعالى ألزموا أنفسهم ومريديهم بالأخذ بالاجتهاد في العبادة ولزوم المجاهدات والعزائم، ولم يبيحوا لأنفسهم الاستكثار من الرخص ـــــــــــ رغم اعتقادهم جوازها ـــــــــــ إلا في أقل القليل فهم يأمرون بالمجاهدة وعدم التساهل، وأن المريد لا يصل إلى ما يريد في طريق التصوف إلا إذا تخلى عن التساهل وتحلى بالمجاهدة، ويلزمونه إذا عُرض عليه أمران أن يفارق الأدنى منهما إلى الأعلى، فإن ذلك أنفع له في ترقيه في طريق التصوف.

وهذه سنة صوفية ساروا عليها جميعًا فيقول أبوعلي الدقاق: (من زيَّن ظاهره بالمجاهدة حسّن الله سرائره بالمشاهدة قال تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ [العنكبوت: ٦٩] [٢].

ويقول السهروردي: (وللعزيمة قوم يركبونها ويراعونها، ولا يرون النزول إلى الرخص خوفًا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا)[٣].

ويذكر إبراهيم ابن أدهم نماذج من ترك التساهل ولزوم المجاهدة فيقول: (لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن المقدام ﷺ كتاب البيوع ـــ باب كسب الرجل من عمل يده جـ٣ صـ٥٧ رقم ٢٠٧٢ .
(٢) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٢١٧ .
(٣) السهروردي: عوارف المعارف صـ٣٦٨ .

أولها: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة٠

ثانيها: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل٠

والثالث: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد٠

والرابع: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر٠

والخامس: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر٠

والسادس: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت)[١]٠

ويذكر الشيخ زروق أن من أدب المريد: (إيثار الأَوْلى في كل شيء ديناً ومروءة، فإن المريد إذا فارق الأَوْلى وقعٍ في دناءة أو زلة أو عيب أو علة، فكان مذمومًا عند الله ممقوتًا عند أبناء الدنيا، قريبًا من كل آفة بعيدًا عن السلامة)[٢]٠

وبناء على هذا وجدنا ابن خفيف يلزم المريدين بالمجاهدة وينفذها هو أيضًا، وكذلك رأيناه يحذرهم من الرخص والتساهل ويطبق ذلك تطبيقًا عمليا٠

ويمكن تناول هذا المعلم المنهجي للتصوف عند ابن خفيف في جانبين نظري وعملي٠

فأما الجانب النظري: فيبين فيه ابن خفيف أهمية العبادة في طريق التصوف فيقول: (والوصول إلى الحق من غير طريق العبادة محال)[٣]٠

ثم يلزم المريد أن يبحث عن أحوال أهل العزائم ليقتدي بهم في أحوالهم فيقول: (ثم على المريد طلب أخلاق الكرام ومطالعة أهل الوفاء ممن مضى من صدر هذه الأمة ممن درجوا على السلامة، ويكون مراعيًا لقوله تعالى: ﴿ مِّنَ

(١) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٢١٧ ٠

(٢) الشيخ زروق الفاسي: عدة المريد الصادق صـ٢١٥، بتحقيق الصادق الغرياني ط:١ سنة ١٤٢٧هـ ـــ دار ابن حزم٠

(٣) ابن خفيف: المعتقد الصغير صـ٣٣٤ ٠

ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٣ ــ ٢٤][1].

ويصف ابن خفيف أنواعًا من المجاهدات التي يمكن أن يلزمها المريد فيأمره بـــ(الجد والتشمير في منازلة الأفعال وكثرة الأوراد، فيلزم الصوم على الاستدامة، فإنه يسد خلل الهموم عن القلوب مع ترك المطعم والمشرب، فيقلب صفاتها وينقلها عن عاداتها، فيجعل بدل الشبع جوعًا وبدل النوم سهرًا، وبدل طيب مناولة ما أراد ترك الشهوات، وبدل الرفاهيات طول المجاهدات في الزام ترك المحابّ، ويمنعها عن التمتع بلبس الفاخرات فيلبسها الصغار والذلة، ويلبس الخشن الضيق حتى لا يجد العز والفخر فيه مساغاً، فإن ذلك مانع له عن طلب الفضولات بالرجوع إلى ما كان عليه من البطالات والغفلات، والتهاون بالفرائض والإعراض عن النوافل.

ويطالبها ــ أي نفسه ــ بدوام الصلوات وأن يستديم الجماعات وأن يقل المجالسات مع مراعات الخلوات وكثرة البكاء في الأسحار)[2].

هكذا يصف ابن خفيف طريق المجاهدة، وكما تبين من كلامه السابق أن من طرق تحصيل المجاهدة:

– الاقتداء بأهل العزائم خصوصًا من صدر هذه الأمة الذين وصفهم الله بأنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

– وكثرة الصيام لما له من آثار إيجابية في تهذيب النفس وحملها على المجاهدة.

– وكثرة الصلاة سيما في الخلوات والأسحار.

– والتقلل من الثياب ولبس الخشن منه حتى لا تدعوه نفسه إلى الافتخار به.

(١) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٣٠٩ .
(٢) الاقتصاد صـ٣٠٦ .

ثم يحذر ابن خفيف بعد ذلك من التساهل والرخص والجلوس مع أهلهما فيقول: (واعلم أن أول فتنة المريدين مجالسة أهل الرخص والمتأولين، وأول عارض من الفترة طلب العلم المانع لهم عن حقيقة حالهم والانقطاع عن مقاصدهم فيركنون إلى التأويلات في طلب التبحر في فنون الروايات عند مجالسته مع هؤلاء الفرق الفتانة)[1].

فالجلوس مع أهل الرخص قد يجر المريد إلى فتنة وهي أنه يغيب عنه التحقق بالصدق والأحوال السامية وينزلق إلى المظاهر وادعاء العلم أو الزهد لذلك حذره ابن خفيف من الرخص.

وهذا هو ما درج عليه الصوفية حين بينوا مغبة الركون إلى الرخص والتساهل في تعاطيها، فالرخصة ــ رغم جوازها شرعًا ــ لا ينبغي للمريد الصادق أن يكثر منها أو يتساهل فيها، فيقول أبوالنجيب السهروردي: (والرخصة منهل يرد عليه المبتدئ، ويتحير فيه المتوسط من السالكين، ويستريح إليه الفائز من العارفين، ولا يستوطن فيه المتحققون؛ لأنه واد متسع كثير الآفات إلا على نية الرحيل اضطرارًا، فالمرتع في جانب الحمى يوشك أن يواقع الحمى؛ لأن حمى الله اتقاء محارمه، وكل من انحط عن درجة الحقيقة وقع على طريق الرخصة، ومن سقط منها وقع في الضلالة والجهل)[2].

وأما الجانب العملي: فقد وجدنا ابن خفيف يلتزم الاجتهاد في حياته وعبادته وسلوكه عمومًا ويطبقه تطبيقًا عمليًا غير جانح إلى الرخص ولا آخذ بها رغم جوازها، وقد استدام ابن خفيف على ذلك منذ أوائل عمره ونعومة أظفاره إلى نهاية حياته، ويمكن ذكر هذا الجانب العملي التطبيقي للاجتهاد عند ابن خفيف فيما يلي:

---

(١) الاقتصاد صـ٣١٠.

(٢) أبوالنجيب السهروردي: آداب المريدين صـ٧١.

ـ اختياره للاجتهاد منذ حداثة سنه: قد أجمعت كتب التراجم على أن ابن خفيف كان من أسرة مرموقة اجتماعيًا حيث كان أبوه من مشاهير الساسة ورجال الحكم في عصره، فيقول الذهبي والسبكي وابن العماد وغيرهم: (كان أبوعبدالله من أولاد الأمراء فتزهّد) [١] والواقع أنه بالرجوع إلى ترجمة والد ابن خفيف وقفنا على أنه لم يكن أميرًا حقيقيًا، بل كان مقربًا من الأمراء حيث كان قائدًا لجيوش أمير البلاد في زمانه.

كما يقول الديلمي عن ابن خفيف: (اعلم أن والده كان من قُوّاد عمرو بن الليث) [٢] وكان عمرو بن الليث من الغساسنة، وعمرو بن الليث هذا كان ثاني أمراء الدولة الصَّفَّارية[٣] وولاه الخلفاء ولايات كثيرة فيكون والد ابن خفيف وإن لم يكن أميرًا حقيقيًا إلا أنه كان من القواد المعدودين والساسة المشهورين، ومع ذلك ترك ابن خفيف تلك الحياة التي تغري أترابه بالانغماس فيها، وآثر الزهد والاجتهاد في العبادة فـ(أظهر ابن خفيف منذ طفولته شغفًا شديدًا بمزاولة الزهد والرياضة)[٤].

ويبدو أنه اجتهد في هذه السن المبكرة لدرجة لفتت نظر المحيطين به كما لاحظت المستشرقة أنا ماريا شميل هذا ونبهت عليه بقولها عن ابن خفيف: (إن هذه التوبة وهجر الرفاهية حالة لم تحدث بعد في شبابه، بل كانت حالة روحية موجودة منذ طفولته، فمنذ طفولته وهو يثير الدهشة في البيئة المحيطة به بتدينه)[٥].

ـ ومن صور الاجتهاد العملية زهده في الملبس إلا الضروري: ويروي أبوالحسن الديلمي عن ابن خفيف أنه قال: (أخذت أتردد على المزابل فترة حتى

(١) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١٢ صـ٣٤٦، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ١٥٠، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٤ صـ٣٨٦ .
(٢) راجع: سيرة الشيخ الكبير صـ٨٨ .
(٣) راجع: ابن خلكان وفيات الأعيان جـ٥ صـ٨٤ .
(٤) مقدمة المستشرقة أنا ماريا طاري لسيرة الشيخ الكبير صـ٢١ .
(٥) نفس المرجع صـ٢١ .

جمعت بعض الخرق وغسلتها وخطتُ منها قميصًا، واشتريت رداءً بثلاثة دراهم، وكنت ألبسه بين الناس فوق ذلك القميص، وذات يوم جاءني صوفي كان له معي حق الصحبة ذات سفر، وكان يرتدي رداءً خَلِقًا باليًا فآثرته بذلك الرداء العلوي، وخلعته عليه)[1].

والواقع أن ابن خفيف لم يكن بدعًا في هذا الاجتهاد في الزهد في الثياب بل تلك سنة الصوفية حيث جعلوا للثياب ضابطًا لابد منه كما يقول الغزالي: (وأقل درجته: ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به، وأوسطه: قميص ونعلان وقلنسوة وأعلاه: أن يكون معه منديل وسراويل، وما جاوز ذلك من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد)[2].

ومن صور الاجتهاد عنده: زهده في الأكل إلا الضـــروري: ويروي الديلمي في ذلك رواية عن الشيخ فيقول: (في بداية رياضتي مرّ عليّ أربعون يومًا لم أكن أطعم إلا كفًا من الباقلاء كل ليلة) [3].

ويروي ابن عساكر والسبكي أيضًا في زهده في المأكل: (قال بعض أصحاب ابن خفيف: أمرني ابن خفيف أن أقدم إليه كل ليلة عشر حبات زبيب لإفطاره، قال: فأشفقت عليه ليلة فجعلتها خمس عشرة حبة، فنظر إلي وقال: من أمرك بهذا؟ وأكل عشر حبات وترك الباقي) [4].

ومن صور الاجتهاد أنه كان يؤثر جيرانه بطعامه: يروي خادمه في ذلك قائلاً: (كان من عادة الشيخ حين يوضع الطعام أمامه ألاّ يمد يده إليه حتى يكثر من

(١) سيرة الشيخ الكبير صـ٩٦، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ١٥٠ .
(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٤ صـ٢٣١ .
(٣) سيرة الشيخ الكبير صـ٩٨ .
(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـ٥٢ صـ٤١٦، والسبكي: طبقات الشافعية جـ٣ صـ١٥٢ .

السؤال عن الإخوان والجيران هل أكلوا شيئًا أو لا؟ فإذا قيل له: قد أكلوا، أكل، وإلا آثرهم بطعامه) [١].

ومن صور الاجتهاد عند ابن خفيف اجتهاده البالغ في النوافل وقراءة القرآن: ويحكي ابن خفيف عن نفسه قائلاً: (ذات يوم قال لي عبدالله الأزرقاني ــ وهو شيخه في الحديث ــ: يا أبا عبدالله، يلزمك اليوم أن تشاركنا في صلوات النوافل ونرجي درس الحديث إلى يوم آخر، فقلت: الأمر كما أراد الشيخ، وإلى أن حانت صلاة العصر ربما صليت ألف ركعة)[٢].

ويقول ابن خفيف عن نفسه أيضًا: (ربما كنت في ابتداء عمري: أقرأ القرآن كله في ركعة واحدة، وربما كنت أصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة)[٣].

ــ **ومن صور اجتهاده: مبالغته التامة في اتباع سنة النبي ﷺ:** حيث يقول ابن خفيف: (ما سمعت شيئًا من سنتة النبي ﷺ إلا استعملته، حتى الصلاة على أطراف الأصابع)[٤].

ــ **واستمر ابن خفيف على ذلك الاجتهاد إلى نهاية حياته،** حيث يروى عنه أنه (لما ضعف في آخر عمره عن القيام في النوافل، فجعل بدل كل ركعة من أوراده ركعتين قاعدًا للخبر: [صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم][٥][٦].

ــ **وأخيرًا: لم يركن ابن خفيف إلى الرخصة رغم أنها مباحة في حقه:** أي أنه آثر الاجتهاد والاستدامة عليه ولم يرض أن يأخذ بالرخصة رغم جوازها، فيروي ابن عساكر عن الديلمي قوله: (قال بعض المشايخ: كان بالشيخ ــ أي: ابن خفيف ــ قديمًا وجع الخاصرة فكان إذا أخذه أقعده عن الحركة، فكان إذا أقيمت الصلاة

(١) سيرة الشيخ الكبير صـ٣٥ .
(٢) سيرة الشيخ الكبير صـ٩٣ .
(٣) نفس المصدر صـ٩٣، وراجع السبكي: طبقات الشافعية جـ٣ صـ١١٤ .
(٤) راجع: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ١٥١ .
(٥) حديث صحيح أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب: تقصير الصلاة ـــ باب صلاة القاعد جـ٢ صـ٤٧ رقم ١١١٥ .
(٦) السبكي: طبقات الشافعية جـ٣ صـ١٥١ .

يحمل على الظهر إلى المسجد ليصلي، فقيل له في ذلك: لو خففت على نفسك لكان لك سعة في العلم، فقال: إذا سمعتم حي على الصلاة ولا تروني في الصف فاطلبوني في المقابر، قال الديلمي: وسمعت عبدالرحمن يقول: ما رأيت الشيخ قط فاتته تكبيرة الإحرام في جميع صلواته منذ رأيته) [١].

بل كان ابن خفيف يحذر من الركون إلى الرخص حتى ولو كانت جائزة فيقول: (ليس شيء أضر على المريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات) [٢].

وجعل ابن خفيف من أهم وصاياه للمريدين أن (يقمع التكالب بشدة المجاهدة)[٣].

خامسًا: تقديم الحلول العملية الميسورة للقضايا الصوفية المهمة:

لقد كان من معالم المنهج الصوفي عند ابن خفيف والتي جعلته ميسورًا قابلاً للتطبيق أنه قدم حلولاً عملية ميسورة التطبيق للقضايا الصوفية المختلفة وجعل تلك الحلول في صورة نقاط محددة ألزم المريد الأخذ بها عمليًا حتى يتسنى له الالتزام بتلك القضايا التي لها أهميتها في الترقي في الطريق الصوفي.

فوجدناه يعالج عمليًا مسائل هامة مثل التوبة، ومعالجة النفس وسياستها، وتعليم المريد قضية الإخلاص في نواح متعددة، وغيرها من القضايا والتي يمكن تناول أهها فيما يلي:

ـ **قضية التوبة:** للتوبة أهمية خاصة عند الصوفية حيث جعلها كثيرون منهم أول مقامات السلوك إلى الله تعالى، فيقولون: (إن التوبة أول مقامات المريدين

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق جـ٥٢ صـ٤١٥، وراجع: طبقات الشافعية الكبرى جـ٣ صـ١٥٤ .
(٢) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٨٢ .
(٣) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٣٥١ .

المنقطعين إلى الله عزوجل وهي على مائة مقام)[١] ويجعلها سهل بن عبدالله أول ما يؤمر به المريد المبتدئ، فيقول: (أول ما يؤمر به المبتدئ التوبة .....)[٢] ويجعلها القشيري: (أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين)[٣].

وابن خفيف يدرك تلك الأهمية الكبيرة للتوبة بالنسبة للسالكين خصوصًا في مراحل البدايات، فيصف التوبة ويستدل عليها بالأدلة الشرعية ثم يصف خطوات عملية يتيسير للمريد تطبيقها عمليًا.

فيوجب ابن خفيف على المريد معرفة التوبة فيقول: (ثم يلزم المريد معرفة التوبة من المخالفات التي لا يخلو منها العباد بعد دخولهم في الإيمان) [٤].

ويعرف ابن خفيف التوبة بأنها: (الرجوع إلى الله من حيث ذهابه عن الله)[٥].

ويصف ابن خفيف للمريد كيفية الدخول في التوبة فيقول: (ثم على المريد عند تصحيح التوبة الرجوع إلى الله في ظاهره وباطنه، فأما الباطني فالندم على قبيح المخالفات من السر والإجهار، وصحة العقد على ترك المخالفات مع حل الإصرار ودوام الاستغفار، فإذا فعل ذلك فقد دخل في تسمية التوبة)[٦].

أي أن طريق الدخول إلى التوبة الصحيحة يكون بأمور أهمها: الندم على المخالفات السالفة سرًا وجهرًا، والعزم الأكيد على ترك المخالفات في المستقبل، وترك الإصرار على تلك المخالفات ثم دوام الاستغفار عنها.

فإذا دخل المريد في باب التوبة فماذا يفعل كي يتحقق منها؟ هنا يضع ابن خفيف منهجًا عمليًا ذا خطوات محددة يجعل عنوانه الرئيس هو هذه العبارة:

---

(١) الخركوشي: تهذيب الأسرار صـ٩٥ بتحقيق: بسام بارود ـــ طبعة المجمع الثقافي ـــ أبوظبي سنة ١٩٩٩م.
(٢) تهذيب الأسرار صـ٩٦ .
(٣) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٢٠٧ .
(٤) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٢٩٤ .
(٥) الاقتصاد صـ٤٩٥ .
(٦) نفس المصدر صـ٤٩٦ .

(ترتيب الموافقات بمفارقة ترتيب المخالفات)[١].

أي أن التوبة لا تتحقق إلا إذا استبدل التائب المخالفات السابقة بموافقات شرعية تمحو هذه المخالفات، ولعل هذا هو ما قصده الصوفية بقولهم على لسان عمرو بن عثمان المكي: (التوبة أن تبدل نفسك بأفعالها في المعاصي بضدها من الطاعات)[٢].

بمعنى أن يقبل العبد على الطاعات كما كان قبل التوبة مقبلاً على المعاصي، وفي هذا المعنى يروي الكلاباذي عن أبي علي الدقاق قوله: (التوبة أن تكون لله وجهًا بلا قفا كما كنت له قفا بلا وجه)[٣] فكيفية التوبة الصحيحة لا تحقق ــ إذن ــ إلا بتبديل الأحوال السيئة الردية إلى أحوال حسنة مرضية.

ثم يذكر ابن خفيف نماذج محددة وخطوات عملية للتوبة فيذكر مثال الصلاة فيقول: (فأول ذلك ــ أي التوبة ــ ما ضيع من عبادة الله تعالى مثل الصلاة المُضَيَّعَة بترك صحة الركوع والسجود والطمأنينة والاعتدال مع الجهل بأحكام الطهارات، ووضع الوضوء مواضعه مع الغفلة بالنية)[٤].

ويذكر ابن خفيف نموذجًا من العبادات وهو الصيام ويذكر نموذجًا ثالثًا للتوبة من حقوق العباد فيقول: (ثم عليه رد المظالم على العباد الذين لهم عليه فَمَن عليه ظلامه في ماله فعليه أن يردها أو يستحله، أو يكسب عليه فيرده، فإن مات المظلوم رد على وارثه، وأما ما كان عليه من ضرب الإنسان فالقصاص أو الاستحلال منه، وما كان من الوقيعة والغيبة والنميمة والشتيمة فالاستحلال أو الاستغفار لصاحبه)[٥].

---

(١) نفسه صـ٢٩٩ .
(٢) السيرجاني: كتاب البياض والسواد صـ٨٩ .
(٣) الكلاباذي: التعرف صـ٩٣ .
(٤) الاقتصاد صـ٢٩٩ ـــ ٣٠٠ .
(٥) الاقتصاد صـ٣٠٠ .

ولم يفت ابن خفيف أن يستدل لكلامه عن التوبة بالآيات القرآنية المشهورة في هذا المقام.

قضية معالجة آفات النفس: اعتنى الصوفية بالنفس الإنسانية عناية شديدة فبينوا أوصافها وآفاتها وكيفية معالجتها وسياستها، فقد اتفق الصوفية على أن من صفات النفس أنها: (حرون، جموح، خداعة، رواغة، فاحذرها، وراعها بسياسة العلم وسُقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد)[١].

واتفقوا كذلك على أنه (ما تحقق سير السائرين ورحيلهم إلى المحبوب إلا بمحاربة النفوس ومجاهدتها)[٢].

وفي ذلك يقول يحيى بن معاذ: (علامة الإصابة مخالفة النفس وعلامة مخالفة النفس ترك شهواتها، قيل له: وما سبب الذنب؟ قال: شهوة النفس)[٣].

وإلى نفس هذه الأفكار يذهب ابن خفيف فينبه إلى أنه يجب على المريد معرفة نفسه معرفة جيدة فيقول: (ثم على التائب من المريدين أن يعلم أحكام نفسه ومعرفة دواعيها والوقوف على شرورها، ويعلم أن لها أخلاقًا وحشية وأوصافًا جموحية)[٤].

ويذكر ابن خفيف كذلك أن من أوصاف النفس (أنها مأوى كل سوء وبذلك وصفها الله تعالى أنها أمارة السوء)[٥].

ثم يصف ابن خفيف خطوات محددة للتعامل مع النفس حتى تستقيم لصاحبها فينوع ابن خفيف أنواع المعاملة للنفس فيأمر مرة بملاطفتها وملاينتها فيقول: (إن

(١) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٩٠ .
(٢) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ٥١٠ .
(٣) الخركوشي: تهذيب الأسرار صـ١٧٥ .
(٤) الاقتصاد صـ٣٠٢ .
(٥) نفس المصدر صـ٣٠٤ .

على المريد تجاه نفسه أن يعمل في ملاطفتها في إلزام أحكام التوبة في الظاهر ويعتقد لها العداوة في الباطن) [١].

فمن أنواع المعاملة مع النفس أخذها باللين والمهادنة والملاطفة، وهذا مناسب للمريد في بداية طريقه أن يأخذ نفسه بالسياسة درجة بعد درجة حتى يظفر بالنصر عليها.

وفي هذا يقول ابن عجيبة: (وكيفية مجاهدتها والحيلة في أخذها أن تدخل معها شيئًا فشيئًا فإذا استأنست به زدتها شيئًا آخر وهكذا) [٢].

ولكن الملاطفة ليست هي الطريقة الوحيدة عند ابن خفيف لمعاملة النفس وسياستها، بل يصف ابن خفيف للمريد طريقة أخرى لمعاملة نفسه وهي الشدة والقسوة، فيقول إن على المريد تجاه نفسه أن (يلزمها القمع بالرياضة والكسر بالمجاهدة، ويطالع اختلاف مطالبتها فيما تهوى والمبالغة في منع شهواتها، ويأخذ عليها أنفاسها في منع لذاتها بدوام الحراسة) [٣].

وهذه طريقة أخرى لسياسة النفس أجمع عليها الصوفية أيضًا فيقول ابن قدامة عن هذه الطريقة في معاملة النفس (واعلم أن أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلِقتْ أمارة بالسوء ميالة إلى الشر، وقد أُمرتَ بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن ألزمتها التوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها)[٤].

ومن الخطوات العملية التي يذكرها ابن خفيف كي يلتزمها المريد في سياسة نفسه ترويضها بكثرة الاجتهاد في العبادة مثل:

---

(١) نفسه صـ٣٠٣ .
(٢) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم صـ٥١١ .
(٣) الاقتصاد صـ٣٠٣ .
(٤) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين صـ٣٧٧ ـــ طبعة دار البيان ـــ دمشق سنة ١٩٧٨م.

- أن (يلزم الصوم على الاستدامة)[١].
- أن (ينقلها عن عاداتها وأن يلزمها بدل الرفاهيات كثرة المجاهدات)[٢].
- أن (يطالبها بدوام الصلوات، وأن يستديم الجماعات)[٣].
- أن (يكثر البكاء في الأسحار)[٤] وبهذه الخطوات العملية تتم عملية سياسة النفس.

وهناك قضايا صوفية أخرى قدم لها ابن خفيف حلولا عملية ميسورة حتى يمكن المريد من تنفيذها في خطوات عملية مثل قضية الإخلاص[٥] ومثل التجافي عن الفرق المختلفة ولزوم منهج أهل الحديث[٦]، ومثل قسمة أوقات الليل وكيفية الاستفادة منها طلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى[٧].

سادسًا: التحذير من آفات الطريق وعقباته وبيان كيفية التغلب عليها:

ونقصد بهذا المعلم المنهجي للتصوف عند ابن خفيف أن جهده في التصوف لم يقتصر على بيان الواجبات التي ينبغي للمريد أن يلتزمها، ويجتهد في تطبيقها، وإنما اهتم ابن خفيف بمسألة أخرى على جانب كبير من الأهمية في الطريق الصوفي، وهي بيان العقبات والآفات التي قد تلقى المريد أثناء سيره إلى الله تعالى، فأكثر ابن خفيف من ذكرها والتحذير منها، وبين في معظمها كيف يتخطاها المريد ويتغلب عليها، ويمكن بيان أهم تلك العقبات فيما يلي:

ـ **التحذير من آفة الرياء:** بين ابن خفيف أن معنى الرياء هو تعظيم الخلق وترك تعظيم الخالق ومهابة الناس وترك مهابة الله تعالى، فالمرائي إذا فعل فعل

(١) الاقتصاد صـ٣٠٥ .
(٢) الاقتصاد صـ٣٠٥ .
(٣) نفسه صـ٣٠٦ .
(٤) نفسه صـ٣٠٦ .
(٥) راجع: تفاصيل قضية الإخلاص عند ابن خفيف. الاقتصاد من صـ٣٢٠ إلى صـ٣٤٣ .
(٦) راجع تفاصيل قضية لزوم منهج أهل الحديث عند ابن خفيف. الاقتصاد صـ٤٠٩ .
(٧) راجع تلك القضية الهامة عند ابن خفيف. الاقتصاد صـ٣٨٦ وما بعدها.

للخلق لا لله، وإذا ترك ترك للخلق لا لله، فهو أبدًا ساغ في مرضاة الناس وهذا هو أصل الرياء.

والرياء يضاد الإخلاص؛ لأن الإخلاص كما يقول أبوعلي الدقاق: (إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى)[١].

وذكر المحاسبي أن الرياء هو: (حب المحمدة على الفعل الحسن، فقيل له: وما علامة المرائي؟ قال ثلاث خصال: ينشط في الملأ، ويكسل في الخلاء، ويحب أن يحمده الناس في جميع أموره) [٢].

ويتناول ابن خفيف التحذير من هذه الآفة الخطيرة مستدلاً عليها بحديث شريف موضحًا معناه حتى يستجيب المريد لهذا التحذير.

يقول ابن خفيف: (ثم يلزم المريد تفقد ما ورد من أخبار الرسولﷺ والتفقه فيها، فقد روي عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ [إذا كان يوم القيامة بعث الله أناسًا من الناس إلى الجنة حتى إذا أدنوا منها ونظروا إلى ثمارها واستنشقوا من رائحتها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها، قال: فيقولون: يا ربنا لو فعلت بنا هذا قبل أن ترينا ما رأيناه كان أسهل علينا، فيقول: هذا أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بمحارمي بارزتموني بالعظام، هبتم الناس ولم تهابوني، أجللتم الناس ولم تجلوني، تركتم للناس ولم تتركوا لي، اليوم أذيقكم من عذابي مع ما حرمتكم من ثوابي][٣])[٤].

---

(١) الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٣٥٩ .

(٢) ابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين صـ١٠٦ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بالقاهرة فريدة عن عدي بن حاتم جـ١٧ صـ٨٥ رقم ١٩٩، والبيهقي في شعب الإيمان جـ٩ صـ١٣٨ رقم ٦٣٩ .

(٤) ابن خفيف: الاقتصاد صـ٣٤٦ .

ثم يذكر ابن خفيف معنى الحديث بما يفيد التحذير والزجر عن آفة الرياء فيقول: (فاسمع يا أخي: فإنه أظهر أوصاف من أَظَهر الترك وكان بنعت المراءاة، وأنه غلب على قلوبهم من تعظيم الخلق ما نشَّزَهم عن تعظيم الخالق وإجلاله، وأخبر أنهم هابوا الناس فغابوا عن هيبة الله تعالى، وأنهم كانوا مطالبين بالتعظيم والهيبة لله، فيكون تركهم لما أرادوا تركه تعظيمًا وإجلالاً لله تعالى، فقد أخبر أن الترك لكل ما لا يرضى الله عزوجل ترك لغير الله، إذ يقول: ﴿ **لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [الحشر: ١٣]، وما كان من الموافقات كان قصدهم فيه التماس الجاه والمنزلة.

فتركوا للخلق لا للخالق، وأظهروا ما كان الحق المستحق من عبادة الله تعظيمًا وإجلالاً، فعظّموا من صغرهم الله في عبوديته، وأعرضوا عن تعظيم الله تعالى)[١].

وبعد أن حذر ابن خفيف من هذه العقبة التي ربما تعترض طريق المريد أرشد إلى علاجها في مواضع كثيرة عن طريق تناول قضية الإخلاص وشرحها والتنبيه على كيفية اكتسابه[٢].

التحذير من الاغترار بالشهرة ومحبة ثناء الناس: يحذر ابن خفيف تحذيرًا بالغًا من آفة خطيرة أخرى قد تعترض المريد أثناء سيره وهي أن يغتر بالشهرة إذا ذاع صيته وانتشر ذكره وأثنى الناس عليه، وهنا يوجب ابن خفيف على المريد أن يقف لنفسه بالمرصاد، وأن يسارع في علاج هذه الآفة، ويضع هذا العلاج في نقاط محددة قابلة للتطبيق كالعادة.

يقول ابن خفيف: (ثم يلزم المريد أن يحذر عند انتشار ذكره وإظهار نسبته، وإذا عرف عند الخاص والعام عند ظهور حاله إذا وُصف بالأحوال السَّنية، ومُدت إليه الأبصار وأشاروا إليه بالأصابع، وبذلوا له الأموال من كل ناحية وخرجت

(١) الاقتصاد صـ٣٤٧ .

(٢) راجع: ابن خفيف الاقتصاد صـ٣٢٠ وما بعدها حيث عقد ابن خفيف فصولاً كثيرة لمعالجة قضية الإخلاص.

الألسنة بالثناء عليه، فإنه أوان اختباره وصدق مطالبة الحق فيما أعطاه من القيام بالعبودية وإسقاط الخليقة من قلبه)[1].

فإذا عرضت للمريد هذه العقبة أو وقع في هذه الآفة كيف يعالجها؟

هنا يضع ابن خفيف علاجًا محددًا ــ كعادته ــ فيوجب على المريد أن يلتزم الخطوات التالية والتي يعبر عنها ابن خفيف بقوله: (فيحفظ نفسه ويراعي سره، ويلزم الوفاء بصدق أهل حاله من صحة القصد فيما أعطاه الله من نفسه من الأحوال التي بها أوصله إلى هذه المنزلة الرفيعة والمقامات السَّنية، وأن لا يحتج إلى الدنيا الدنية، فإنها قبلت بتركها، وأظهر الله شأنه في التجافي عنها ويراعي قوله: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٣ــ٢٤].

ويحذر الركون إلى التأويل الذي أهلك أهل زمانه من المنسوبين إلى التقوى من أهل نحلته والفائزين من أهل قضيته والناكثين بعهده، ويعمل في تضاعيف ذلك كثرة اللياذ وإظهار الفقر والاعتذار والتنصل بالأسحار مع دوام الاستغفار، وأن يستعيذ بالله من شر نفسه....)[2].

وهكذا يرى ابن خفيف أن المريد لكي يعالج تلك الآفة فعليه:

- أن يرجع إلى الله فورًا ويذكر نعمته عليه حين وفقه إلى هذه المقامات التي مدحه الناس عليها.

- وعليه أن يخرج الخليقة من قلبه، ويُلزم نفسه الصدق والإخلاص مع ربه.

- وعليه أن يبغض الدنيا الدنية فإن حبها هو الداعي إلى تلك الآفة والشهرة من صفات أبنائها.

- وعليه ألا يحتج إلى التأويلات التي توقعه في آفة العجب وحب الشهرة.

---

(١) الاقتصاد صـ٣٥٧ .

(٢) الاقتصاد صـ٣٥٧ ــ ٣٥٨ .

– وعليه أخيرًا أن يلجأ إلى الطريقة الناجحة المنجية من تلك الآفة المهلكة وهي اللياذ إلى الله أولاً وأخيرًا٠

التحذير من آفة محبة التصدر وطلب الرئاسة قبل أوانها: يحذر ابن خفيف السالكين من الوقوع في هذه الآفة لأنها تؤدي بالمريد إلى عواقب وخيمة من الانشغال بالناس وترك الانشغال بالله تعالى، كذلك قد تجره إلى الوقوع في العلماء والخوض في المشايخ تحقيقًا لرغبته في التصدر والرئاسة٠

يقول ابن خفيف: (ثم ليحذر المريد الصادق إظهار نفسه في الرئاسة قبل حينه وأوانه فإن ذلك يولد عليه آفات تقطعه عن الله تعالى)[١]٠

ولكن ما هي تلك النتائج المترتبة على تلك الآفة؟ يبين ابن خفيف ذلك فيقول: (فمن ذلك: اشتغال قلبه بمن يجالسه، والتفكر في إقبالهم عليه وكثرة الاهتمام إذا انتقلوا عنه إلى غيره، وخصلة أخرى: أن يتكلف لهم ما لم ينو من الأفعال التي يتقرب بذلك إلى قلوبهم ليعطفهم على نفسه٠

وخصلة أخرى: الوضع من العلماء والحكماء عندهم أنهم طلاب الدنيا، فيصفهم بالآفات والتخلف الذي به يسقطون من أعين الحاضرين ليرفع نفسه، وخصلة أخرى وهي الاستنكاف عن التعلم عند عقد الرئاسة مما يحتاج إليه خوفًا بأن لا ينظروا إليه أنه محتاج إلى التعلّم، وأنه لا يستحق أن يكون أستاذ المريدين طلبًا لعز نفسه، وخصلة أخرى: وهي محاكاة المشايخ في لباسم وزيهم ادعاء منه أنه من نظرائهم وأشكالهم....)[٢]٠

التحذير من آفة مخالطة أهل الأهواء والبدع: يقول ابن خفيف: (ثم ليحذر المريد وليحفظ سره وعلانيته من الإصغاء إلى كلام الموسوسين بالبدع من الضُلال فإنهم القوم الذين حذر منهم رسول الله ﷺ فقال: [أخوف ما أخاف على أمتي منافق

(١) الاقتصاد صـ٣٩٢ ٠
(٢) الاقتصاد صـ٣٩٣ ٠

عليم اللسان يقول الحق ويعمل بالجور][1] وقال ﷺ [يكون في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون بقول خير البرية يمرقون في الدين كما يمرق السهم من الرمية][2] وذكر الحديث)[3].

ويبين ابن خفيف أوصاف هؤلاء المدعين الذين يجب على المريد الحذر منهم فيقول: (وليحذر المريد مجالسة هؤلاء الجوالين في البلدان ممن ليسوا موقنين في الدين وليس يهمهم أمر الشرائع والفرائض ممن معولهم على لبس الصديقين وقد استعاروا إشارات المحققين، وقد تزينوا بزي الفاضلين، فإنهم المنسلخون من الدين وإياك والاغترار بهؤلاء اللعابين من المُحَاكين)[4].

فهؤلاء جميعً أهل دعاوى كاذبة وليسوا من أصحاب التحقيق والصدق فليحذرهم السائر إلى الله تعالى.

ولكن كيف يعالج المريد تلك الآفة وكيف يتجاوز تلك العقبة إن عرضت له.

يصف ابن خفيف علاجًا لتلك الآفة فيأمر المريد بمطالعة أحوال المشايخ من أهل التحقيق والرسوخ فيقول: (وليحذر المريد إن طالبته نفسه إلى المجالسات فليقصد إلى طائفة من المعروفين من أهل الدين ممن هم مشغولون بإصلاح شأنهم المراعين لأوقاتهم فيما يقربهم من الله عزوجل)[5].

ويأمر ابن خفيف المريد كذلك بمجالسة الصالحين من أهل الحديث فيقول: (وعليك بمنهج أصحاب الحديث والأخذ في فقهائهم والتعلق بآثارهم والبحث والطلب عن مذاهبهم والكشف عن صحة روايتهم والنزول في أحوالهم)[6].

---

(١) هذا الحديث: أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ١ صـ٢٨٩ برقم ١٤٣ وأخرجه عبد بن حميد في مسنده صـ١٣٢ رقم ١١ .

(٢) هذا الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب باب علامات النبوة جـ٤ صـ٢٠٠ رقم ٣٦١١ .

(٣) الاقتصاد صـ٤٠٩ .

(٤) الاقتصاد صـ٣٧٩ .

(٥) نفس المصدر صـ٣٨١ .

(٦) الاقتصاد صـ٤٠٩ .

ثم يأمر ابن خفيف لمعالجة تلك الآية بالتمسك بسيرة السلف الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من الصالحين فيقول: (وعليك بمنهج المتقدمين، وطلب آثار الكرام من الصحابة والتابعين وأهل الأثر المعروفين ممن أثنى الله عليهم من الصالحين)[١].

وهناك آفات أخرى كثيرة عرض لها ابن خفيف وحذر منها ثم بين علاجها بطرق عملية تطبيقية مثل آفة ادعاء التوكل في أمور معيشية[٢].

ومثل آفة إظهار صفات مدعاة وليست فيه حقيقة[٣].

ومثل آفة التصنع والتكلف طلبًا للجاه والرفعة[٤] وغيرها.

(١) نفس المصدر صـ٣٧٩ .
(٢) راجع الاقتصاد صـ٣٧٧ .
(٣) الاقتصاد صـ٣٧٤ .
(٤) نفسه صـ٣٦٨ .

خاتمة تتضمن أهم النتائج

تعد هذه الجولة التي عشنا فيها مع المدرسة الأشعرية وأعلامها خصوصًا ابن خفيف الشيرازي تستطيع أن يستخلص النتائج التالية:

١ – امتزج التصوف الإسلامي الحقيقي بعلم الكلام السني في فكر أصحاب أعلام المدرسة الأشعرية.

٢ – لم يكن هذا الامتزاج والتشابك بين التصوف وعلم الكلام خاصًا بمرحلة معينة من مراحل المدرسة الأشعرية بل كان عامًا وشائعًا في كل طبقاتها وأطوارها على يد مؤسسها الإمام الأشعري رحمه الله إلى عصرنا الحاضر على يد شيخ الأزهر الشريف الأستاذ الدكتور أحمد الطيب رحمه الله.

٣ – ابن خفيف الشيرازي كان أشعريًا حيث تلقى علم الكلام على يد الإمام الأشعري مباشرة وأصبح من أعيان تلامذته، ثم التقى وتحاور وتناقش بأعلام المدرسة في الطبقة الأولى كأبي الحسن الباهلي وبندار بن الحسين ثم في طبقتها الثانية حيث التقى بأشهر أعلام تلك الطبقة وهو القاضي الباقلاني.

٤ – كان لابن خفيف الشيرازي منهج صوفي له معالم محددة نظريًا وعمليًا وتلك المعالم كلها في جانبيها النظري والعملي كانت مضبوطة انضباطًا شديدًا بالقرآن والسنة.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم٠

ثانيًا: السنة المشرفة٠

ثالثًا: المصادر والمراجع العامة٠

١ – الإبانة عن طرق القاصدين والكشف عن مناهج السالكين ــ ابن فورك ــ تحقيق: أحمد يلديرم وعبدالغفار أصلان ــ طبعة استنابول سنة ٢٠١٤م٠

٢ – إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ــ الزبيدي ــ مؤسسة التاريخ العربي ــ بيروت ــ سنة ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م٠

٣ – إحياء علوم الدين ــ أبوحامد الغزالي ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ بدون٠

٤ – آداب المريدين ــ أبوالنجيب السهروردي ــ تحقيق: الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي ــ الطبعة الثانية ــ بدون ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت٠

٥ – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ــ شهاب الدين التلمساني ــ تحقيق مصطفى السقا ــ ط١٩٣٩م ــ لجنة التأليف والنشر ــ القاهرة٠

٦ – إيقاظ الهمم في شرح الحكم ــ ابن عجيبة ــ تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله ــ دار المعارف ــالقاهرة ــ بدون٠

٧ – تبيين كذب المفترى ــ ابن عساكر ــ تحقيق أنس محمد عدنان الشرقاوي ــ ط١ ــ ٢٠١٨م ــ دار التقوى ــ سوريا٠

٨ – تذكرة الأولياء ــ فريد الدين العطار ــ ترجمة د/ منال اليمني ــ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ سنة ٢٠٠٩م٠

٩ – التعرف لمذهب أهل التصوف ــ أبوبكر الكلاباذي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون٠

١٠ – التعريفات للجرجاني ــ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ ــ١٩٨٣م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت٠

١١ – تهذيب الأسرار ــ الخركوشي ــ بتحقيق بسام بارود ــ طبعة المجمع الثقافي ــ أبوظبي ــ سنة ١٩٩٩م٠

١٢ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ــ أبونعيم الأصبهاني ــ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ــ سنة ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م٠

١٣ – داعي الفلاح إلى سبل النجاح ــ المرصفي ــ تعليق: د/ عصام الكيالي ــ الطبعة الثانية سنة ٢٠١٣م ــ دار الكتب العلمية٠

١٤ – الرسالة القشيرية ــ أبوالقاسم القشيري ــ تحقيق: الإمام الأكبر عبدالحليم محمود ود/ محمود بن الشريف ــ دار المعارف ــ القاهرة ــبدون٠

١٥ – الرعاية لحقوق الله ــ المحاسبي ــ تحقيق: عبدالقادر عطا ــ الطبعة الرابعة ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت٠

١٦ – سيرة الشيخ الكبير ــ الديلمي ــ ترجمها: ركن الدين يحيى بن جنيد الشيرازي، وترجمها إلى العربية د/ إبراهيم الدسوقي شتا ــ طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية بالقاهرة، سنة ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م٠

١٧ – شد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار ــ جنيد الشيرازي ــ صححه: محمد قزويني وعباس إقبال، طبعة طهران سنة ١٣٢٨هـ٠

١٨ – طبقات الشافعية الكبرى ــ السبكي ــ بتحقيق د/ محمود الطناحي ود/عبدالفتاح محمد الحلو ــ الطبعة الثانية ــ سنة ١٤١٣هـ ــ دار هجر للطباعة والنشر٠

١٩ – طبقات الصوفية ــ أبوعبدالرحمن السلمي ــ بتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى ــ سنة ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت٠

٢٠ – عدة المريد الصادق ــ الشيخ زروق ــ بتحقيق الصادق الغرياني ــ الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ ــ ٢٠٠٦م ــ دار ابن حزم.

٢١ – عوارف المعارف ــ شهاب الدين السهروردي ــ تحقيق الإمام الأكبر عبدالحليم محمود، ود/ محمود بن الشريف ــ الطبعة الثانية سنة ٢٠١٧م ــ دار المعارف ــ القاهرة.

٢٢ – الغنية لطالبي طريق الحق عزوجل ــ الجيلاني ــ بتحقيق: صلاح عويضة ــ الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٣ – فضل التصوف على المذاهب ــ ابن خفيف الشيرازي ــ عمل على نشره وإخراجه: فاطمة علاقه، بالتعاون مع كاظم بركنيسي، ط معارف ــ دورة بانزدهم ــ شمارة ١و٢، فروردين ــ آيان ١٣٧٧ .

٢٤ – قواعد التصوف ــ الشيخ زروق ــ ضبطه وعلق عليه: محمود بيروتي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م ــ ط: دار البيروتي ــ دمشق.

٢٥ – قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ــ أبوطالب المكي ــ تحقيق د/ عاصم الكيالي ــ الطبعة الثانية ــ سنة ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٦ – كتاب البياض والسواد من خصائص حِكم العباد في نعت المريد والمراد ــ أبوالحسن السيرجاني ــ تحقيق: بلال الأرفه لي وندى صعب ــ شركة القدس للطباعة ــ بدون تاريخ.

٢٧ – كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ــ التهانوي ــ تحقيق د/ علي دحروج ــ الطبعة الأولى ١٩٩٦م ــ مكتبة لبنان ــ بيروت.

٢٨ – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ــ حاجي خليفة ــ مكتبة المثنى ــ بغداد ــ سنة ١٩٤١م.

٢٩ – كشف المحجوب ــ الهجويري ــ دراسة وترجمة وتعليق د/سعاد عبدالهادي ــ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م٠

٣٠ – اللمع ــ أبونصر السراج الطوسي ــ تحقيق د/ عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ــ دار الكتب الحديثة ــ سنة ١٩٦٠م٠

٣١ – مختصر منهاج القاصدين ــ المقدسي ــ قدم له: محمد أحمد دهمان ــ طبعة مكتبة دار البيان ــ دمشق، سنة ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م٠

٣٢ – المعتقد الصغير ــ ابن خفيف الشيرازي ــ تحقيق د/ قدري الديب وزميله ــ الطبعة الأولى ٢٠٢٢م ــ دار الإمام الرازي للنشر والتوزيع ــ القاهرة٠

٣٣ – معجم اصطلاحات الصوفية ــ عبدالرزاق الكاشاني ــ بتحقيق:د/عبدالعال شاهين ــ الطبعة الأولى ــ سنة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م ــ دار المنار٠

٣٤ – مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ــ ابن عطاء الله السكندري ــ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ــ طبعة سنة ١٣٣٢هـ٠

٣٥ – نفحات الأنس من حضرات القدس ــ أبوالبركات جامي ــ طبعة الأزهر الشريف، بدون تاريخ٠